الموسوعة الصغيرة

١٢٩

ملامح في تراث العرب النقدي

تأليف

د. محمود عبد الله الجادر

الموسوعة الصغيرة

(١٢٩)

ملامح في
تراث العرب النقدي

د. محمود عبدالله الجادر
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

منشورات دار الجاحظ للنشر ـ بغداد

الجمهورية العراقية ١٩٨٣

تمهيـــد

لاتشـــكل محاولة وضع اليـد على التفاصـيل (النظرية) الدقيقة للمنهج البيئي في مضامين التراث النقدي العربي هدفا مرسـوما لهذه الدراسة ، فذلك ادعـاء لا يشـفع له ما هو معروف من أن الجهـد النقدي العربـي المبكر ظل أقرب الى التوجـه التطبيقي منه الى محاولة التنظير ، أما المحاولات النادرة التي قدم أصحابها بين يدي جهدهم (قاعدة) نظرية ــ كما هـو الحال عنـد الجاحـظ وابن قتيبة وابن طباطبا مثلا ــ فقد ظل الامر فيها قائما على تفاصيل قد تكون تعميمية أحيانا ولكنها لا ترقى الى مستوى الشمول

المفترض في (النظرية) النقدية المكتملة ، فضلا عما قد يتكشف للنظر المدقق من الفجوة التي ظلت تفصل بأقدار متفاوتة بين اطار الطرح النظري وتفاصيل الجهد التطبيقي في أكثر هذه المحاولات .

وحيث بدت الجهود النقدية العربية التي سبقت مرحلة التدوين ـ القرن الثاني للهجرة ـ موزعة بين الملاحظة الانطباعية السريعة والنظر التحليلي غير المستقصي ، وقائمة على أسس متفاوتة تدخل فيها المعايير الفنية والاخلاقية والدينية واللغوية بهذا القدر أو ذاك فان الصورة التي تبلورت على أيدي علماء القرن الثاني الهجري ظلت تمد جذورها الى الارض الاولى فلم تتمخض جهودهم عن منهج واضح المعالم يبتعد بالجهد النقدي عن مواقف التأثر الآني وينقطع به عن صور التناقض التي بدت ثمرة طبيعية لهذا الانشداد العنيف الى المسلك الذوقي الصرف ، على أننا قد نواجه

في الآراء النقدية المبثوثة في المدونات المبكرة سمات (مواقف) نقدية واضحة المعالم تبلورت في ملاحظات اللغويين بوجه خاص وتمثلت أهم مضامينها في اقامة حاجز فني مفترض بين القديم والمحدث من الشعر ، وعلى الرغم من أن الحد الزماني في هـذا (الموقف) ظل غير محدد المعالم فان الخلاصة العامة ظلت تتجه الى تأكيد الظن بأن اللغويين كانوا ينظرون الى ظهور الاسلام على أنه الحد الزماني المقترح بين النمط الجاهلي الذي ألفوه وتبينوا مواطن الابداع فيه والنمط المحدث الذي أعرضوا عن خوض الحديث في قيمته الفنية ماوسعهم الاعراض .

وقد يمثل الاتجاه الى التقسيم الطبقي (موقفا) تطبيقيا يستمد مقوماته من أرض المنهج الفني الذي ظلت تفاصيله غامضة في الاحكام غير المعللة التي انتهت الى صيغة الحكم من خلال تعيين موضع الشاعر الطبقي

كما هـو الامر في طبقات أبي عبيـدة[1] وطبقات ابن سلام ، فضلا عن مدونات أدبية ونقدية لم تقم مناهجها على أساس من التقسيم الطبقي ولكنها حين تناولت الشعراء أومأت الى تأثرها به من خلال تقديم الحديث عن الشاعر او تأخيره كالشعر والشـعراء لابن قتيبة والموشح للمرزباني .

وحيث يبدو جهـد الجاحـظ أقرب الى التنظير النقدي في دراسته لفن البيان التي أقامها على أساس من النظر الى القيمـة الفنيـة للاداء في تقديم المعاني المطروحة لعامة الناس فان هـذا النمط من الجهد ظل متفردا طـوال القرن الثالث حتى لا نكاد نجـد لـه امتدادا الا في أوائل القرن الرابع على يد ابن طباطبا العلوي الذي آل المجرى النقدي بعده الى طرح الموقف

(١) لم يصـل الينا كتاب ابي عبيـدة ولكن بعض الدارسـين جمع نصوصا مبثوثة في كتب الادب منسوبة اليه فخرج بقائمة تضم ثلاث طبقات جاهلية وطبقة اسـلامية وطبقة للمحدثين ، ينظر مصطلحات نقدية ص ٢٨٨ .

النظري لخدمة الزاوية التي ينطلق منها الناقد في الخصومات والموازنات الادبية التي قامت حول عبقريات شعرية استطاعت أن تؤثر في مجرى النقد فتحول به عن اطاره التقليدي الى آفاق العصر الرحيبة وما استجد فيها من معطيات فنية تستحق التأمل والدراسة .

ان دراسة التراث النقدي التي تمخضت عنه جهود النقاد العرب منذ عصر التدوين حتى القرن الخامس الهجري الذي بدأ النقد يتحول فيه الى المجاري البلاغية كفيلة بأن تقرر أن الناقد العربي لم يكن يؤول الى موقف نظري مفترض في تعامله مع النماذج الادبية المختلفة وانما كان تعامله قائما على مرتكزات متعددة تتخذ أبعادها المتفاوتة من خلال طبيعة النص والموقف ودواعي القول ، على أن ذلك كله لا يعني انسحاب الارض النظرية بشكل حاسم من تحت قدمي الناقد العربي القديم قدر ما يعني تبلور اوليات (مواقف)

نظرية متعددة ظلت تجد إمتدادها بهذا العمق أو ذاك في الجهد النقدي ، ولهذا فان الدراسات المعاصرة تبقى مؤهلة لوضع اليد على (ملامح) مبكرة لكثير من النظريات النقدية الحديثة في الموروث النقدي العربي ، وتلك هي المهمة التي تحاول هذه الدراسة تحقيق جانب منها ، فالنظرية البيئية ـ أو الاقليمية ـ التي اكتملت على يد الناقد الفرنسي هيبوليت أدولف تين (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣م) لاتبدو جذورها بعيدة عن تربة ملاحظات نقدية عربية مبكرة في الميدانين النظري والتطبيقي كانت مدار متابعة هذه الدراسة التي خرجت من استقرائها بحقيقة مفادها ان مبدأ الربط بين البيئة والنتاج الادبي عميق الجذور في أذهان النقاد العرب الذين ظلوا يومئون الى قناعتهم به ويعتمدون عليه في مواقف التحليل والحكم أحيانا حتى اكتملت أبعاده التطبيقية على يد أبي منصور الثعالبي الذي أقام كتابه (يتيمة الدهر) على أساس من التقسيم البيئي المعلل

من خلال وجهة نظر نقدية ناضجة ولهـذا فأن جهـد الثعالبي سيكون الشـاخص الاخـير الذي تقف هذه الدراسة عند حدوده التاريخية •

وحيث تتجه النظرية البيئية المعاصرة الى دراسة عوامل الزمان والمكان والبيئـة الاجتماعيـة والبيئـة الشخصية وأثرها في النتاج الادبي[٢] فان الدراسـة ستتابع تفاصيل تشخيص النقاد العرب لهذه العوامل على الصعيدين النظري والتطبيقي طامحة الى أن تكون خطوة على طريق تأصيل الملامح النظريـة الاخرى في الموروث النقدي العربي •

---

(٢) الاستزادة ينظر : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ، ملاحظات تين حول انكلترا ، أصول النقد الادبي •

المكان والأدب

حين نضع نصب اعيننا الحقيقة القائلة بان بواكير الجهـد المنهجي في النقد العربي ـ والتي بدأت تتبلور في اواخر القرن الثاني للهجرة ـ كانت منصبة بشكل رئيس على استقراء النماذج الجاهلية دون سـواها ـ لاسباب سنتناولها فيما بعد ـ يكون علينا ان نتصور جهـدا نقديا تنحصر المادة الادبية التي جعلها مدارا لنشاطه في اطار مكاني تندر وجوه التفاوت البيئي فيه ، فعلى الرغم من أن الجزيرة العربية التي احتضنت مهاد الشعر الاولى ذات تضاريس معروفة التفاوت فان اكثر الشعر كان ينبثق في هذه المضارب المتناثرة على أديم الصحراء الرملي المنبسط حتى الافق ، اذا استثنينا

بعض نماذج الهذليين الذين تاخموا المناطق الجبلية فتسللت آثار وجوه النشاط الحياتي فيها الى اشعارهم دون أن تمس الجوهر البدوي لبناء قصائدهم بشكل يستدعي النظر ٠

وحيث يكون هذا النمط من الشعر وحده مدار نشاط نقدي لا يكاد يعنى بدراسة نمط سواه ، أو موازنته به ، فان البحث عن مضامين قائمة على دراسة العلاقة بين المكان والادب في هذا الموروث النقدي ضرب من العبث الذي لا طائل وراءه ، ولكننا نبقى — رغم ذلك كله — بازاء تصور مبكر لاثر تباين بيئي قد لا يبدو مؤهلا لاثارة ملاحظة نقدية جادة الا عند ناقد مرهف الحس كأبن سلام ، ففي كتابه (طبقات الشعراء) الذي ضم ذكر أربعين فحلا جاهليا موزعين على عشر طبقات في كل طبقة أربعة شعراء وأربعون فحلا أسلاميا موزعين على عشر طبقات في كل طبقة أربعة شعراء أيضا ، فضلا عن طبقة

ملحقة بطبقات الجاهليين ضمت ذكر أربعة من أصحاب المراثي يطالعنا قسم مفرد لشعراء القرى العربية الخمس (المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين[1]) وتلك حقيقة نرى أن نقف عندها لنتأمل بعض المداخلات الخاصة بأنتمائها الى الكتاب أولا ، ثم لنتابع مدلولها النقدي بعد ذلك .

ان الناظر في منهج ابن سلام النقدي مؤهل للظن بأن قسم شعراء القرى مقحم على نسخته المخطوطة التي سلمت من يد الايام، ذلك أن مقدمة النسخة لا تحمل أية اشارة الى هذا القسم ضمن ما قدمته من حديث عن المادة المودعة في الكتاب ، حيث لا يطالعنا الا قول ابن سلام : « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين فنزلناهم منازلهم »[2] وقوله : « فأقتصرنا في هذه على فحول الشعراء الاسلاميين

---

(١) تنظر الطبقات ص ٥٢

(٢) المصدر نفسه ص ٩

للاستغناء عن فحول شعراء الجاهلية بطبقاتي المؤلفة في ذلك ، فرتبت هذا المؤلف على عشر طبقات كل طبقــة تجمع أربعة من فحول شعراء الاسلام »[٣] ، وعــلى الرغم من التداخل الواضح بين الاشارتين فأنهما تشهدان على صدق انتماء مادة طبقات الجاهليين العشر وطبقات الاسلاميين العشر الى الكتاب فضلا عن مــادة طبقــة أصحاب المراثي التي ورد في تقديمها ما يقرر أن ابن سلام ألحقها بطبقات الجاهليين ، وحيث لا يعنينا هنا أن نناقش مسألة انتماء طبقات الجاهليين والاسلاميين الى كتاب واحد أو كتابين لابن سلام ، فأن الذي يعنينا من ذلك كله أن هذا الذي يطالعنا من اشارات المقدمة الى مادة الكتاب لا يتضمن أية اشارة الى قسم شعراء القرى العربية ، فاذا افترضنا أن اضطراب النسخة التي وصلت الينا من الطبقات ذهب باشارة ابن سلام الى شعراء القرى العربية من مقدمته ـ وذلك افتراض ـ منطقي ـ وجب

---

(٣) المصدر نفسه ص ١٠ .

علينا أن نجد تفسيرا منطقيا لخروج المؤلف عن منهج التقسيم الرباعي في حديثه عن شعراء القرى العربية عدَّ من شعراء المدينة خمسة ومن شعراء مكة ثمانية ومن شعراء الطائف أربعة ومن شعراء البحرين ثلاثة وقال عن اليمامة « ولا أعرف باليمامة شاعرا مشهورا » ثم عاد الى أكتاف المدينة فعد من شعرائها اليهود ثمانية(٤) ، وكان علينا أيضا أن نجد تفسيرا مقبولا لتخلي ابن سلام عن لفظة (طبقة) في وصف هذه المجاميع كلها فضلا عن تخليه عن استخدامها خلال الحديث التفصيلي عن شعراء المجاميع سوى ما ورد من اشارة الى (طبقة) عبدالله بن رواحة من أشراف المدينة ممن شهد بدرا ، وهو استخدام للفظة بمدلول زمني صرف يخرج عن طبيعة استخدامها الفني في سائر الكتاب .

وحيث يكاد يصح لدينا أن قسم شعراء القرى العربية غريب عن طبيعة كتاب الطبقات فأننا نميل الى

---

(٤) المصدر نفسه ص ٤٨ ــ ٧٤

القول بأنه قد يكون مؤلفا برأسه من مؤلفات ابن سلام اختلط بنسـخة الطبقات التي وصلت الينـا أو أقحم عليها ، على أن هذا لا يدعونا بأية حال الى الغاء قيمة المضمون النقدي الذي ينطوي عليه افراد شعراء القرى بدراسة مستقلة تحول دون ذكر أي منهم ضمن طبقات الجاهليين العشر فنحن نرى في ذلك اشارة حاسمة الى تقرير ملامح نظر (بيئي) انتهى عند ابن سلام الى هذا المسلك من الفصل بين شعراء البادية وشعراء الحاضرة في النظر النقدي .

على أننا لا نريد أن نغلو في تقويم الحقيقة فنذهب مذهب الدكتور محمد مندور حين قرر أن ابن سلام جعل (المكان) ثاني أربعة أركان نهجية بنى عليها كتابه وأنه « عندما وزع الشعراء بين الجاهلية والاسـلام وقسم هؤلاء وأولئك الى طبقات نظر فوجد أن هناك شعراء لم يصبحوا شعراء للعرب كافة بل ظلوا متصلين كل بقريته وهم ما يمكن أن نسميهم بالشعراء الاقليميين

فجمعهم في باب شعراء القرى »[٥] فذلك زعم لا يشفع له الا ظاهر ما وصل الينا من كتاب الطبقات ، ذلك أن التسليم بصحة انتماء قسم شعراء القرى الى كتاب الطبقات نفسه سيبقى معوزا للاقرار ببعض مضامين هذا الزعم ، فضلا عن حقيقة أخرى وهي أن الشعراء الذين ذكرهم ابن سلام في قسم شعراء القرى ما كانوا كلهم شعراء (اقليميين) وأن الشعراء الذين ذكرهم في الطبقات العشر ما كانوا كلهم شعراء (للعرب كافة) ، وحسبنا من ذلك القول بأن قسم شعراء القرى ضم ذكر حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم وأمية بن أبي الصلت والمثقب العبدي وهم من هم عند العرب كافة ، بينما ضمت طبقات الفحول ذكر مغمورين من أمثال أوس بن غلفاء وضابىء بن الحارث وحريث بن مخفض .. الخ ، وعلى أساس من ذلك كله فأننا نرى أن نقف بحذر شديد من هذا الحكم وما يقاربه من الاحكام التي أطلقها مؤرخو النقد العربي

---

(٥) النقد المنهجي ص ١٦٣ .

بشأن هذا القسم من كتاب الطبقات (٦) ونزعم أن افراد شعراء القرى بقسم أو بكتاب مستقل عن الطبقات قد يمثل نتاج تنبه مبكر الى أثر النقلة والاستقرار في الشعر ، وتلك حقيقة كانت جديرة بأن تبدو واضحة الابعاد لو أن ابن سلام عني بتوضيح دوافعها عنده من خلال اشارة الى أثر من آثار الاستقرار في شعر شعراء القرى كما فعل عندما ربط بين لين شعر عدي بن زيد واستقراره في الحيرة فقال : « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه فحمل عليه شيء كثير »(٧) وان كان ذلك مما لا نريد له أن يطرح مقياسا مفترضا في طبيعة نظرة ابن سلام الى شعراء القرى العربية لعلمنا بأن الرجل كان أدرى بأنأثر الحيرة ــ وهي الحاضرة الوثيقة الصلة بالفرس ــ في لين لسان

(٦) من ذلك مثلا ما ذهب اليه د . بدوي طبانة في كتابه دراسات في نقد الادب العربي ص ١٣٢ حين قال : « نظر ابن سلام في البيئة واثرها في الشعر فخصص فصلا لشعراء القرى العربية ».

(٧) طبقات الشعراء ص ٢١ .

عدي بن زيد غير أثر المدينة ومكة والطائف والبحرين في لغة شعرائها ونمط شعرهم ، فهي حقيقة كانت ماثلة في ذهن ابن سلام وجيله من العلماء حتى اننا نجد ابن قتيبة حين خالف الاصمعي على ما ذهب اليه بشأن فصاحة زياد الاعجم (٨) أقام حكمه على أساس من ارتباط الشاعر بالبيئة الفارسية فقال : « وهو كثير اللحن في شعره ولهذا قيل له الاعجم ، ولفساد لسانه بفارس » (٩) .

لقد كان ابن سلام مهيأ للتمييز بين النمط البدوي وغيره من الشعر من خلال توجهه في التقسيم ولكنه لم يكن مهيأ لتشخيص الفروق الفنية المحددة بين النمطين وذلك ما يقنعنا به مثل قوله في قضية النحل : « وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ، ولا ما وضعوا ،

---

(٨) قال فيه الاصمعي : « حجة لم يتعلق عليه بلحن » فحولة الشعراء ص ١٦ .

(٩) الشعر والشعراء ص ١٣٣ ثم ذهب المذهب نفسه في تعليل دخول بعض الالفاظ الفارسية في شعر الاعش ص ٢٥٨

ولا ما وضع المولدون ، وانما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الاشكال »[١٠] .

فهو اذ يشير الى أن ما يحمل على الشعراء من نتاج الرواة والمولدين (وهم سكان حواضر بالطبع) مما يمكن للعلماء تمييزه دون نتاج أهل البادية يقرر أن علماء عصره كانوا قادرين على التمييز بين النمطين البدوي والحضري من الشعر ولهذا كان ما ينحله الشاعر البدوي للشاعر البدوي هو ما يعضل بهم دون سواه ، أما شواخص التمييز ومؤشراته فتبقى غامضة عند ابن سلام .

والذي يبدو لي ان ايمان العلماء بأن البادية هي منبع الشعر العربي كان معيارا قائما حتى في مواقف الاعجاب بالمضامين الابداعية للشعر الحضري ، حتى

---

(١٠) طبقات الشعراء ص ١٤

روي أن اسحق بن ابراهيم الموصلي أنشد الاصمعي بيتين هما قوله :

هل الى نظـرة اليـك سـبيل
فيبل الصـدى ويشـفى الغليل

ان ما قل منـك يكثر عنـدي
وكثـير ممـن تحب القليـل

على أنهما لبعض الاعراب . فقال الاصمعي : هذا والله الديباج الخسرواني . وسأله عن قائلهما ، فصرح أنهما له . فقال الاصمعي : لا جرم والله ان اثر التكلف فيها ظاهر(١١) .

ولايدخل مثل هذا التناقض في الحكم تحت باب التعصب ، ذلك أن العلماء ظلوا يمتلكون تعليلهم المقنع له ، فثمـة رواية أخرى تقول ان أبا الحسن الطوسي أنشد ابن الاعرابي أرجوزة أبي تمام التي مطلعها :

---

(١١) الوساطة ص ٥٠ ، والموازنة ج ١ص ٢٤ .

وعـاذل عذلتـه في عـــذله

فظـن أنـي جاهـل من جهله

على أنهـا لبعض رجاز هذيل • فأمره بكتابتها استحسانا لهـا ، فلما أخبره أنهـا لأبي تمـام أمره بتخريقها[12] •

والرواية كما ترى تمثل امتدادا لهذا الموقف غير المعلل الذي وقفه الاصمعي من شعر الحاضرة وبدا أن التعصب غالب عليه ، بيد أننا نواجه التعليل المقبـول لموقف الرجلين فيما قرره الآمدي حين علق على الرواية الثانية بقوله : « ولايدخل ابن الاعرابي في التعصب ولا الظلم ، لأن الذي يورده الاعرابي وهو محتذ على غير مثال أحلى في النفوس واشهى الى الاسماع وأحق بالرواية والاستجادة مما يورده المحتذي على الامثلة ، وعذر ابن الاعرابي في هذا واضح »[13] •

---

(١٢) اخبار أبي تمام ١٧٥ ـ ١٧٦ •

(١٣) الموازنة ج١ ص ٢٣

على أن الجاحظ يعمد الى موازنة من نمط آخر بين البدوي والمولد من الشعر حين يقرر أن « الفرق بين المولد والاعرابي أن المولد يقول بنشاطه وجمع باله الابيات اللاحقة بأشعار أهل البدو ، فاذا أمعن انحلت قوته واضطرب كلامه »(١٤) .

ثم ان الجاحظ نفسه يقدم أوليات مناقشة جادة لأثر البادية في الشعر حين يقول : « وبنو حنيفة ، مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهم ، وكثرة وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم وتخوصهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكرا كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعرا منهم ، وفي اخوتهم عجل قصيد ورجز وشعراء ورجازون ، وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر ، وأكالو تمر ، لأن الاوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت ، وكذلك عبدالقيس النازلة في البحرين ، فقد تعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل

---

(١٤) الحيوان ١ ٣ ص ١٣٢

اليمامة ، وثقيف أهل دار ناهيك بها خصبا وطيبا ، وهم ـ وإن كان شعرهم أقل ـ فأن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب ، وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ولا من قلة الخصب الشاغل ، والغنى عن الناس ، وانما ذلك عن قدر ما قسم لهم من الخطوط والغرائز والبلاد والاعراق مكانها » (١٥) .

وعلى الرغم من أن الامر في هذا النص بدأ متجها الى مناقشة استقرائية لاثر عوامل مفترضة في كثرة الشعر أو قلته يمثل (المكان) واحدا منها فأن الجاحظ انتهى منه الى تقرير ثلاثة عوامل متداخله بدا أنه يريد أن يقول ان بعضها لا يغني عن بعضها الاخر وهي : الطبع (الخطوط والغرائز) ، والمكان (البلاد) والجنس (الاعراق) .

على أن الجاحظ نفسه قد يذهب غير هذا المذهب في تقويم أثر (المكان) في الادب ، ولا سيما حين يتصدى

---

(١٥) الحيوان ج ٤ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ .

مما يبدو أنه استقر في الاذهان من أن البادية أقدر على استدرار الشعر من الحواضر فيقول : « وشأن عبدالقيس عجب ، وذلك أنهم بعد محاربة اياد تفرقوا فرقتين ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم أشعر قبيل العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة وهذا عجب » (١٦) .

وليس ثمة شك في أن (عجب) الجاحظ اشارة موحية الى ما لم يصرح به من ايمانه العميق بأثر البادية في الشعر رغم الشاهد التطبيقي المناقض الذي ساقه ، فأن صح ذلك يكون من حقنا أن تتصور انشداد علماء النصف الاول من القرن الثالث الهجري الى هذا التوجه القائل بأن الشعر العربي نتاج بدوي ضمن اطاره الجاهلي ، ويكون قسم شعراء القرى عند ابن سلام

(١٦) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٦ ـ ٩٧ .

أقدم اشارة الى التمييز بين النمط البدوي وسواه من من الشعر الجاهلي .

وقد تبدو اشارة الجاحظ الى أثر البيئة في تحديد زرادشت لعقوبة مخالفيه بالثلج[١٧] أكثر وضوحا على صعيد الربط بين البيئة والفكر ، ولكن الشعر يبقى عنده بعيدا عن التكيف المباشر لعامل المكان كما رأينا في النصوص التي سقناها قبل قليل .

ولا تشير المدونات النقدية الاخرى التي وصلت الينا من نتاج القرن الثالث الهجري الى جهد واضح المعالم في موضوع أثر البيئة المكانية في الادب سوى ما يطالعنا من افراد ابن قتيبة لشعراء هذيل ضمن مجموعة برأسها في اطار اختياراته للشعراء الجاهليين[١٨] بيد أن ذلك لا يعني أن النقاد نفضوا اليد من المسألة ، وانما الذي يبدو أن الامر كان في طريقه الى التبلور حتى كأنه

---

(١٧) الحيوان ج٥ ص ٦٧

(١٨) الشعر والشعراء ص ٣ ٦٥ - ٦٧٠

لم يعد بحاجة الى اعادة تأمل ، وذلك هو مبعث العفوية في مثل قول ابن طباطبا : « واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الاوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها ، وأدركه عيانها ، ومرت به تجاربها ، وهم أهل وبر ، صحونهم البوادي وسقوفهم السماء ، فليست تعدو اوصافهم ما رأوه فيها »(١٩) .

والذي يخيل الى أن الذي يكمن وراء مثل هذا النص هو التحول الحاسم الذي شهدته بيئات الشعر الجديدة حتى كان على ابن طباطبا وجيله من نقاد القرن الرابع أن يواجهوا هذا الفيض من الانمـاط الشعرية المتباينة التي تمخضت عنها حقيقة تباين بيئات الشعر العربي الجديدة وأن يمعنوا النظر في مدى قرب نتاج كل بيئة أو بعـده عن عمود الشعر العربي الموروث وأجوائه البدوية ليتلمسوا علل التحول والتباين بين الانماط ، ومن هنا استقر النظر الى أثر البيئة المكانية في الشعر

---

(١٩) عيار الشعر ص ١٠

ضمن ما وضعوا عليه اليد من العلل والمؤثرات ، ولعلنا مؤهلون للاحاطة بهذه الحقيقة بشكل أقدر على تحديد تصور واع لطبيعة انشداد الجهد النقدي في القرن الرابع الى مسلك تلمس أثر المكان في الادب اذا تأملنا مضمون مذهب القاضي الجرجاني في التمييز بين النمط الاسلامي والنمط الجاهلي من الشعر العربي في قوله :

« فلما ضرب الاسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادي الى القرى ، وفشا التأدب والظرف ، اختار الناس من الكلام أليفه وأسهله ، وعمدوا الى كل شيء ذي أسماء كثيرة ، فأختاروا أحسنها مسمعا ، وألطفها من القلب موقعا ، وتجاوزوا الحد في التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن ، وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة ، وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة الطباع والاخلاق ، فأنتقلت العادة ، وتغير الرسم ، وانتسخت هذه السنة ، واحتذوا بشعرهم هذا المثال ، وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف

ما سنح من الالفاظ ، فصارت اذا قيست بذلك الكلام الاول يتبين فيها اللين فيظن ضعفا ، فاذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا ، وصار ما تخيلته ضعفا رشـــاقة ولطفـــا » [٢٠] .

وعلى الرغم من تشعب صور الاداء الفني التي تابع الجرجاني وجوه التغيير فيها بفعل التحول البيئي فأن الاساس النظري الذي بنى عليه مذهبه في التقرير قائم على ملاحظة أثر البيئة المكانية بشكل رئيس ، وذلك ما يغرينا بالقول بأن النصف الثاني من القرن الرابـــع الهجري شهد ضربا من التبلور الواضح لمبدأ التسليم بأثر المكان في الادب حتى كان طبيعيا أن يشهد ميدان التأليف في الادب العربي محاولات في الاقتصار على أدب البيئة الواحدة في المؤلف الواحد ، فمن هـــذا النمط كتاب (شعراء مصر) للصولي وكتاب (أصبهان)

---

(٢٠) الوساطة ص ١٨ .

لابي عبدالله حمزة بن حسين الاصبهاني [21] وهو توجه لا نستبعد أن يكون باعث الثعالبي على أختيار منهج التقسيم البيئي في كتابيه (يتيمة الدهر) و (تتمة اليتيمة) حيث تشير الحقائق الى أن الامر آل عنده الى تصور نقدي واع لاثر البيئة المكانية في الادب ، وذلك أمر أعانه عليه طبيعة الثقافة الادبية التي تلقاها، فقد كان أستاذه أبو بكر الخوارزمي [22] ممن انتجع بلاط سيف الدولة الحمداني ، واعجب بشعر أهل الشام ، وفضله على شعر سائر البيئات العربية وكان لابد له أن يعلن عن اعجابه لتلاميذه ومن يحضر مجالسه، حتى روى عنه الثعالبي نفسه أنه كان يقول : « ما فتق قلبي ، وشحذ فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف حد لساني ، وبلغ بي هذا المبلغ الا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء

(٢١) ينظر يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٩٩ .

(٢٢) ينظر نزهة الادباء في طبقات الادباء ص ٢٤٩ .

نفسي وغصن الشباب رطيب ورواد الحداثة قشيب»[٢٣]

وقد كان لابد لهذا الاعجاب أن يجد صداه في نفس التلميذ الذي راح يبحث في علل تمييز شعر الشام من خلال استقراء لهذا الفيض الذي تجمع بين يديه من نتاج شعرائه وموازنته بما يماثله من نتاج البيئات الاخرى ومحاولة تبين علل التمايز فكان على رأس العوامل عنده بداوة البيئة الشامية وسلامة ألسنة شعرائها من الفساد الذي طرأ على ألسنة شعرائها من الفساد الذي طرأ على ألسنة شعراء العراق لاختلاطهم بالاعاجم ، وهكذا طرح عاملي البيئة المكانية والبيئة الاجتماعية في تعليله لتقدم شعراء الشام في قوله : « والسبب في تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لالسنة أهل العراق لمجاورة الفرس والنبط

(٢٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٦

ومداخلتهم اياهم ، ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة »[٢٤] .

وهكذا أخضع الثعالبي منهج تأليف اليتيمة لهذا الاحساس بالآثار العميقة التي يمكن للبيئة المكانية أن تتركها في الادب فجعل كتابه أربعة أقسام أفرد كل قسم منها لشعراء بيئة ، فكان الاول لشعراء الشام وما جاورها الى الاندلس ، والثاني لشعراء العراق ، والثالث لشعراء الجبال وفارس وجرجان وطبرستان ، والرابع لشعراء خراسان وما وراء النهر متابعا أثر البيئة من خلال لمحات نقدية مبثوثة في تراجم من تناولهم من الشعراء .

ولقد أثار منهج الثعالبي جملة من الملاحظات في الدراسات المعاصرة التي ذهب بعضها الى توضيح بعده

(٢٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤

النقدي [٢٥] وذهب بعضها الاخر الى التشكيك في قيمته النقدية ومال الى تقرير قيمته المنهجية في التأليف فحسب[٢٦] .

والذي يغلب على ظني أن احساس الثعالبي بأثر البيئة يبقى أعمق من هذا الذي يخلفه النظر المتعجل الى منهج تقسيم شعراء اليتيمة وتتمتها ، فقد كان الرجل حريصا على أن يربط بين البيئة والادب في تقديمه للكتاب وكان حريصا على أن يتابع ذلك حتى في الملاحظات التفصيلية في أثناء الكتاب ، فهو حين يقرر

---

(٢٥) ذهب الدكتور عمر الدقاق الى ان تصنيف الثعالبي للبيئات اقرب الى روح الادب من مناهج مؤرخي الادب الآخرين ، ينظر مصادر التراث العربي ص ١٥٦ ، وينظر ما يقارب ذلك في مناهج الدراسة الادبية ص ١٧٠ .

(٢٦) عد الدكتور احسان عباس منهج الثعالبي منهجا تاليفيا صرفا لا علاقة له بالتصور النقدي انظر تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ٣٧٤ ، أما الاستاذ محمد محيي الدين عبدالحميد فقد فسر تقديم الثعالبي لشعراء الشام بانه ضرب من التعصب دون ان يفسر بواعث التعصب المزعوم ، اليتيمة ، مقدمة المحقق ج ١ ص ٩

أن أصبهان (لم تزل مخصوصة من بين البلدان باخراج فضلاء الادباء وفحولة الكتاب والشعراء) يسـرع الى تعليل ذلك بقوله : « والسبب ما أقدره من حسن آثار طيب هوائها وصحة تربتها وعذوبة مائها في طباع أهلها وعقول أنشائها »[٢٧]

وقـد يقرر الثعالبي حقائق أخرى معتمدا على التوجه العام لمنهجه ، فهو اذ يرى أن الشاش بعيدة عن خطط العرب تقوم لديه القناعة بأنها أعقم من ان تنجب شعراء مجيدين كالذين تنجبهم البيئات العربية الاصيلة وما يتأخمها ولهذا فانه حين يطلع على نتاج شاعر مبدع من أبنائها يطيل التعجب فيقول في ترجمة أبي محمـد المطراني : « شاعر الشاش وحسنتها وواحدها ، فانها وسائر بلاد ما وراء النهر لم تخرج مثله الا أبا عامر اسماعيل بن أحمـد بعده »[٢٨] ، ثم يقـول في ترجمة

(٢٧) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٩٩ .

(٢٨) المصدر السابق ج ٤ ص ١١٥ .

أبي عامر « قد كان يقع التعجب من اخراج الشاش مثل أبي محمد المطراني في حسن شعره وبراعة كلامه ، فلما أخرجت فن اسماعيل من القى اليه القول الفصل زمامه وملكه المعنى عنانه كما قيل جرى الوادي فطم على القرى »(٢٩) .

ولنا بعد ذلك أن نستنبط من تقديم الثعالبي وتأخيره للبيئات في أقسام اليتيمة ، وتقديمه وتأخيره للبلدان داخل البيئة الواحدة ، معايير تشف عن منهجية واضحة في ميدان الربط بين البيئة المكانية والادب ، وهي مما يمكن حصره ضمن ثلاثة توجهات في مسألة التقديم والتأخير وهي :

١ ـ مجاورة البيئة لمهاد الشعر الاولى ـ الجزيرة العربية ـ أو بعدها عنها .

٢ ـ تكوين البيئة الجغرافي ومناخها ونباتها وماؤها . وما يمكن ان يحدثه ذلك في طباع سكانها .

---

(٢٩) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٨٥ .

٣ ـ قرب البيئة أو بعدها عن خطط الاعاجم وطبيعة الأثر الاعجمي فيها وهو توجه يجتمع فيه النظر الى أثــر البيئة المكانية بالنظر الى أثر البيئــة الاجتماعيــة ٠

على أننا لا نزعم أن الثعالبي أخضع دراسته لهذه التوجهات اخضاعا رياضيا صرفا ، ذلك أن الاجتهــاد الذوقي بقي محورا لا غنى عنه في ميدان التقويم النقدي عنده ، فضلا عن انه قدم مسوغات اســتثنائية أحيانا لمخالفة منهج التقديم والتأخير كما هو الحال في تأخيره لشعراء نيسابور في قسم شعراء خراسان في تتمة اليتيمة، والذي يغلب على الظن انه أخرهم في اليتيمــة ليفرغ لشعراء مدينته في آخر كتابه أما حين كتب التتمة فقد وجد أنه سيترجم في قسم شعراء نيسابور ومن طرأ عليها لشعراء من أعيان العصر ممن طرأ على نيسابور بصحبة السلطان سعود وهو ملتزم بتقديم شعر الملوك

والاعيان على من سواهم لعلل قررها في مقدمة يتيمته سنتناولها فيما بعـــد .

وقد يمتد جهـــد الثعالبي الى كشف حقائق دفينة أخرى في مضمار النظر البيئي الذي لا يكشـــف عنـــه السطح الظاهر للتوجهات التي ذكرناه كما هو الامر في تصوره لاثر البيئة المبكر وطغيانه على الاثـــر البيئي المتأخر وذلك ما يوضحه قوله في ترجمة أبي نصر المهلبي: « شاعر أسفرائيني المولد، عراقي المنشأ ، صحب أعراب البوادي ، وأخذ عنهم ، وتفاصح متشبها بهم »[٣٠] فهو اذ يقرر أن العراق (منشأ) أبي نصر يحاول أن يشير الى ما ينبغي توقعه من لين لغته الحضرية ، أما اصطحابه لأعراب البادية فقد كان حريا بأنه يوجه الذهن الى احتمال فصاحته ولكن الثعالبي يقرر ان هذا الاصطحاب المتأخر تكشف عن (تفاصح) لا عن (فصاحة) .

(٣٠) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٩ .

لقد أرسى الثعالبي أسس النظر البيئي في التقويم النقدي وجعل عنصـر المكان منطلقا رئيسا في توزيع تراجم الشعراء في يتيمة وتتمتها فكان رائد عدد من العلماء الذين تابعـوا أدب عصورهم كالباخرزي في دميــة القصر وعلي بن زيد البيهقي في وشاح الدميــة وابن بسام في الذخيرة والحظيري في زينة الدهر والعماد الاصبهاني في الخريدة ، وتلك حقيقة يبدو أن بوسعنا أن تقرر معها ان منهج الربط بين البيئة المكانية والادب ظل يجد صداه في ميدان التأليف الادبي رغم انحساره عن ميدان الجهد النقدي المتبلور بعد الثعالبي

الزمان والأدب

تبقى الملاحظات التي مثلت حصيلة الجهد النقدي العربي في العصر الجاهلي والقرن الاول الهجري بعيدة عن تشخيص أثر الزمان في الادب ، فحيث ظل مدار النشاط النقدي الجاهلي مرتبطا بهذه النصوص المروية التي لا تعرف لها نماذج مكتملة أسبق من نماذج مهلهل وامرىء القيس بدا أن عنصر الزمان ساقط أو كالساقط بالقياس الى الحصيلة الشعرية التي قرر الجاحظ أن عمرها لا يتجاوز القرنين من الزمان[1] .

ويبدو أن وحدة الظروف البيئية وتناظر مصادر الثقافة العامة وندرة الوقوع تحت تأثير تيارات فكرية

---

(1) الحيوان ج ١ ص ٧٤ وينظر العمدة ج ١ ص ١٨٥ .

متباينة عوامل أدت الى استقرار النمط الشعري استقرارا لم يدع منفذا لتسلل محاولات تجديد وتحوير في النمط الشعري ، أما هـذا الذي يدعي بعض مؤرخي الادب المعاصرين حدوثه من دعوات التجديد التي أنبثقت في أواخر العصـر الجاهلي على ألسنة الشعراء الجاهليين أنفسهم فمحض وهم ، فهم اذ يقررون ذلك يعتمدون على قول عنترة

هل غـادر الشـعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم(٢)

وقـول كعب بن زهير

مـا أرانا نقـول الا رجيعـا
أو معارا من قـولنا مكرورا(٣)

---

(٢) ديوانه ص ١٨٢

(٣) ديوانه ص ١٥٤ وقد نسبه الذين استشهدوا به الى زهير خطأ انظر تأريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ١ ص ٣٠ . وتاريخ الادب العربي للزيات ص ٣١

أما بيت عنترة فما نظنه الا تساؤلا موضوعيا سبقه اليه من هو أقدم منه من الشعراء ، بل ان امرأ القيس وهو سابق الشعراء الذي « خسف لهم عين الشعر »[٤] قرر أنه مسبوق في هذا الامر حين قال :

عوجا على الطلل المحيل لأننا
نبكي الديار كما بكى ابن خذام[٥]

أفيصح لنا بعد هذا أن نعد تساؤل عنترة معقودا على رغبة في تجديد فني ؟

وأما بيت كعب فهو يرد ضمن أبيات من افتتاح قصيدة طويلة مطلعها قوله

ان عرسي قد آذنتني أخيرا
لم تعرج ولم تؤامر أميرا

---

(٤) الشعر والشعراء ص ١٢٧ وانظر مايشير الى سبق امرىء القيس للشعراء في المصدر نفسه ص ١٢٨

(٥) ديوانه ص

والذي ينظر الى موضع البيت من الافتتاح قادر على أن يكتشف بيسر أن القول فيه موجه الى زوج الشاعر التي أعاد عليها القول وأرجعه فلم ترتدع وتلك حقيقة يخرج البيت معها من دائرة الدعوة المزعومة الى التجديد .

لنا أن نطمئن بعد ذلك الى ان العصر الجاهلي الذي كان يشهد تجديدا تلقائيا في النمط الشعري لم يشهد دعوة نقدية صريحة على ألسنة الشعراء الى تجديد يستدعي نظرا نقديا مؤهلا للتمييز بين (قديم) و (جديد) ، أما بزوغ نور الاسلام فقد أحدث تغييرا جذريا في حياة العرب ما في ذلك شك ولكن الحياة الجديدة التي أعقبته ظلت حافلة بما يشغل الذهن عن تأمل الابعاد الفنية لعملية الابداع الشعري وتقويم وجوه التحول فيها حتى اذا مالت الحياة الى الاستقرار النسبي في العصر الاموي كان الشعر قد اتخذ توجهات موضوعية متباينة ، فكانت الحجاز بيئة الغزل والشام بيئة الشعر

السياسي والمديح ، والعراق بيئة شعر الاحزاب السياسية والهجاء ، والذي تشير اليه الملاحظات النقدية التي انبثقت في البيئات الثلاث ان الجهد ظل ينصب على ملاحقة البناء الموضوعي ومتابعة معطياته الادائية في النماذج الموروثة والمعاصرة لاجراء الموازنة والتقديم، بيد أن العراق كان يشهد بداية تأسيس المدرستين اللغويتين في البصرة والكوفة حيث كان من الطبيعي أن يتجه اللغويون الى القديم تطلبا للشاهد ، فكان أن اشتد حرصهم على طلبه من أفواه الرواة ، فلما أطالوا مدارسته ألفوه وأعجبوا به ، ثم تحول الاعجاب ضربا من التعصب حتى بدا أن الامر مؤهل لان يتخذ مسلك اللجاجة أحيانا وذلك ما نلمحه في مثل هذا الذي روي عن أبي عمرو بن العلاء من قوله : « لو أدرك الاخطل من الجاهلية يوما واحدا ما قدمت عليه جاهليا ولا اسلاميا »(٦) .

(٦) فحولة الشعراء ص ١٨ وقد سبقت الاشارة الى ملامح هذا التوجه في المبحث السابق .

لقد جعل اللغويون ظهور الاسلام حدا فاصلا بين مايقبلون ابداء الرأي فيه من شعر وما لا يقبلون الخوض في حديثه منه الا حين يتجردون لتوثيق لغة شاعر اسلامي دون التقويم الفني ، والذي ينظر في فحولة الشعراء للاصمعي قادر على أن يكشف هذه الحقيقة بيسر ، فهو معني بتصنيف الجاهلين (فحولا) و (غير فحول) اما اذا سئل عن شاعر اسلامي فانه يكتفي بالحكم على لغته فيكون عنده (فصيحا) أو (ثبتا) أو (ثقة) أو ضد ذلك ، بل انه ليتابع منهج أبي عمرو بن العلاء متابعة حرفية أحيانا فيقول مجيبا عن سؤال حول جرير والفرزدق والاخطل : « هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن ، ولا أقول فيهم شيئا لانهم اسلاميون »(٧) .

وقد يخضع مثل هذا التوجه الى نمط من التعليل الفني الذي يكشف عن صدق ما ذهبنا اليه أولا

---

(٧) المصدر السابق ص ١٢

من أن ألفة اللغويين للقديم هي العامل الكامن وراء اضرابهم عن الخوض في تفاصيل المحدث فهاهــو ابن الاعرابي يقرر أن « أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته أزداد طيبا »[٨] .

وهكذا غدا عنصر (الزمان) معيارا نقديا يدخل في أسس النظر والتقويم بشكل قد يطغى أحيانا على المعايير الفنية وذلك ما ظل العلماء يحتاطون له حتى في حالات اعجابهم بالمحدث ، ولهذا فأن الاصمعي حين يبدي اعجابه بشعر نصيب لا يلبث حين يطلب اليه أن يوازن بينه وبين عبد بني الحسحاس أن يقول : « هما في قرن واحد لان نمطهما واحد ، ولكن ذلك متقادم في الزمان وهذا محدث »[٩] .

---

(٨) الموشح ص ٢٤٦

(٩) طبقات الشعراء المحدثين ص ١٥٥

لقد غدت صفة (المحدث) أشبه بالتهمة المسلطة عند العلماء ، وكان من العسير استخلاص أحكام على أشعار المحدثين لا تقع تفاصيلها تحت طائلة هذه التهمة ، ولهذا فأن ابن مناذر يضطر أن يقول لابي عبيدة عندما يعرض عليه مرثية له عارض بها أبا زبيد الطـــائي : « احكم بين القصيدتين واتق الله ، ولا تقل ذلك متقادم الزمان وهذا متأخر ، ولكن أنظر الى الشعر واحكم لافصحهما وأجودهما » [10] .

على أن ذلك كله لا يعني أن العلماء ظلوا يمتلكون (حصانة) تقيهم الاعجاب بالمحدث دائما لا سيما حين يخلو أحدهم الى ذوقه أو يقع تحت تأثير لحظة اعجاب متدفق ، فها هو أبو عمرو بن العلاء لا يملك ــ رغم تزمته المعروف ــ أن يقول في لحظة اعجاب لا نعرف عن تفاصيلها شيئا : « لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت بروايته » [11] وها هو يونس بن حبيب يسمع

---

(١٠) المصدر السابق ص ١٢٢

(١١) الشعر والشعراء ص ٦٣

قصيدة لمروان بن أبي حفصة فيفضلها على قصيدة للاعشى مسقطا عنصر الزمان (١٢) وها هو أبو عبيدة يحكم على شعر الحسين بن مطير بأنه من أعجب الشعر اليه دون أن يغريه تأخر الشاعر في الزمان بحكم آخر (١٣) ، بيد أن لحظات الاعجاب التي تمخضت عن مثل هذه الاحكام ظلت أضعف من آثار الموقف المتزمت الذي قرر اللغويون من خلاله تفاصيل عملية الانحياز الى القديم انسياقا وراء ما أشرنا اليه من عوامل .

وقد يمثل جهد ابن سلام تلخيصا متطورا لآراء شيوخه اللغويين في هذا المضمار ، فهو حين يتصدى لتدوين كتابه طبقات الشعراء ويوزع الفحول الجاهليين الاربعين على عشر طبقات يقيم مبدأ التقديم والتأخير فيها على أساس من النظر الى كثرة شعر الشاعر وجودته، يعمد الى أربعين من الشعراء الاسلاميين فيوزعهم على عشر طبقات أيضا ومن خلال معياري الجودة والكثرة

---

(١٢) الموشح ص ٥٥

(١٣) طبقات الشعراء المحدثين ص ١١٤ .

نفسهما ، وسواء أكانت طبقات الاسلاميين جزءا من كتاب الطبقات أم كانت كتابا مستقلا برأسه فأن مجر قبول ابن سلام مبدأ الخوض في حديث الاسـلاميين وتصنيفهم في طبقات الفحولة كالجاهليين اشارة حاسمة الى تطور النظرة الى الاسلاميين الذين رأينا شيوخ ابن سلام يقفون موقفا متشددا من مسألة تقويم أشعارهم تقويما فنيا أو تصنيفهم (فحولا) و (غير فحول) ، بيد أن ذلك كله لا يغرينا بالقول بأن ابن سـلام أسـقط عنصر الزمان اسقاطا كاملا في معياره النقدي ذلك أنـه لم يعرض للمحدثين أو لمعاصريه بشيء رغم أنـه قبل الخوض في حديث الاسلاميين ، ولقد أصاب الدكتور بدوي طبانة حين وصف بواعث ابن سلام بقوله : « قد تكون العلة واضحة في أسلوب ابن سلام نفسه في طبقات الشعراء الذي وجدناه يستعين في تأليفه ويستظهر على آرائه بآراء العلماء الذين يثق بهم ويعتمد على آرائهم في شعراء قد قضوا نحبهم واصبح تراثهم الشعري ملكا

للعلماء والنقاد يقولون فيه ما شاؤوا ، أما الشعراء الذين عاصرهم ابن سلام فلم تكن الاقوال فيهم قد تبلورت بعد بحيث يعتمد عليها ، ولعل أولئك العلماء كانوا يخشون ما قد ينالهم من أولئك الشعراء من الهجو المقذع اذا تعرضوا لشعرهم بالنقد والتحليل والاشارة الى مواطن الضعف فيه ، فضنوا بأعراضهم أن يشتمها الشعراء » (١٤) .

لقد وضع الدكتور يده على جوهر المسألة حين أشار الى عدم تبلور الاقوال في المحدثين والى خوف العلماء من هجاء من يتعرضون له من معاصريهم من الشعراء ، بيد أن الامر لم يجر على هذا بعد ابن سلام ، فقد استطاع الجاحظ أن « يؤسس دينا نقديا جديدا أثار به على أصنام الادب الجاهلي وحطم أصنام التقديس للماضي » (١٥) .

---

(١٤) دراسات في نقد الادب العربي من الجاهلية الى القرن الثالث ص ٥٦

(١٥) نصوص النظرية النقدية ص ١٦ .

لقد رأينا الجاحظ يقرر أن المولد قد يقول الابيات اللاحقة بأشعار أهل البادية ولكنه اذا استمر انحلت قواه[16] ولكن هذا التوجه لم يمنعه من أن يقول في شعر المولدين وأن يرى فيهم عددا من (المطبوعين) فيقول : « والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلي والسيد الحميري وأبو العتاهية وابن أبي عيينة وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل وسلما الخاسر وخلف بن خليفة ، وابان بن عبدالحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء ، وبشار أطبعهم كلهم » [17] بل انه ليذهب الى أبعد من هذا حين تجره حماسته لابيات قالها أبو نواس فيقول في وصفها : « وأبيات أبي نواس ــ على أنه مولد شاطر ــ أشعر من شعر مهلهل في اطراق الناس في مجلس كليب » [18] فيكون حكمه

---

(١٦) سبقت الاشارة الى هذا الموقف في مبحث المكان والادب

(١٧) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٠

(١٨) الحيوان ج ٣ ص ١٢٩

قائما على اسقاط عنصر الزمان الذي ظل مسلطا على أحكام اللغويين النقدية .

ان الصورة التي يمكننا أن نخرج بها من هذا التطور الوئيد لقبول علماء القرن الثالث لاشعار الاسلاميين ثم المحدثين مؤشر حاسم الدلالة على أن الاحساس بأثر الزمان في الادب ظل ماثلا في أذهان النقاد الاوائل رغم اختلاف الروايات التي انطلقوا منها ، فلقد ظل تمسك اللغويين بالجاهلي من الشعر دون سواه يمثل منطلقا فنيا محوره الايمان بأن العصر الجاهلي وحده كان مؤهلا لابداع النماذج المكتملة التي ظلت تصدر عن قرائح بكر لم تفسدها حضارة ولم يكدر صفوها تقليد ، أما الاسلاميون والمتأخرون فقد ظلوا صدى يفتقر الى (الاصالة) في ميدان الابداع ، على ان انفتاح آفاق الجهد النقدي في القرن الثالث لقبول المحدث يقدم الاشارة الحاسمة الى أن آثار الاستقرار الحضاري التي أفسدت نقاء القصيدة البدوية الموروثة

في المراحل الاولى استطاعت أخيرا أن تجد نمطها المقبول على أيدي الجيل الاول من شعراء العصر العباسي ، ومن هنا كان استمرار اضراب النقاد عن الخوض في مدارسة المحدث ضربا من التخلف عن مواكبة التطور المنطقي لطبائع الاشياء ، بيد أن هذا الانفتاح للمحدث لم يسقط القديم وانما ظل يحتفظ له بالتقديم ويفرد له موضع الاحكام فيما قد يشكل من أمر المحدث نفسه ، وذلك هو مدار الحركة التوفيقية التي بدت ملامحها واضحة عند ابن قتيبة الذي أفرد مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) لطرح موقف نقدي حرص أن يقيم تفاصيله على مبدأ (العدل) متأثرا بثقافته الفقهية ومتجها الى التقويم الفني الصرف بعد اسقاط عنصر (الزمان) ، وهكذا ضمن مقدمته قوله : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن بأستحسان غيره ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه والى المتأخر منهم بعين

الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه ، فأني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره »(١٩) .

بيد أن هذا التوجه المغرق في (المنطقية) ظل معرضا للتراجع أمام الثقافة النقدية التي ظل عصر ابن قتيبة يستمد تفاصيلها من نتاج جهد اللغويين الاوائل الذين رأينا شدة تعصبهم للقديم وآية ذلك أن ابن قتيبة حين تحدث عن أقسام القصيدة العربية مستهديا بالبناء الفني للقصيدة الجاهلية ومشيرا الى بواعث الوقوف على الطلل والتحول الى النسيب أو الظعن ثم

---

(١٩) الشعر والشعراء ص ٦٢ ، ٦٣ .

وصف الناقة ثم الانتهاء الى الغرض الشعري خرج من ذلك الى تقرير عجيب ضمنه قوله : « فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدل بين هذه الاقسام فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد »[20] ، ثم ذهب الى أبعد من ذلك حين قال : « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الاقسام فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لان المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لان المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير أو يرد على المياه العذاب الجواري لان المتقدمين وردوا على الاواجن والطوامي ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لان المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة »[21] .

(٢٠) المصدر السابق ص ٧٥ .

(٢١) الشعر والشعراء ص ٧٦ .

وواضح أن ابن قتيبة يكاد في نصه هـذا يطرح ملامح موقف لا ينتمي الى ماحاول تقريره اولا من اسقاط عنصر الزمان ، فهو حين يفرض على المتأخر مسلك المتقدم ثم يقيم من تفاصيل القصيدة الموروثة (نموذجا) ينبغي على المتأخر أن يحتذيه يبدو الصق بمبدأ التعلق بالقديم من أوائل اللغويين وذلك هو مصداق ما ذهبنا اليه أولا من أن محاولة ابن قتيبة التوفيقية جاءت نتاج ثقافته الفقهية التي سرعان ما تراجعت أمام تفاصيل الجهد النقدي المطروح في المقدمة وفي متن الكتاب حيث تمثلت مادة ماوصل الينا من اختياراته باختيار لمائتين وستة شعراء ، بينهم واحد وخمسون جاهليا ، وخمسون مخضرما ، وسبعون اسلاميا ، وثلاثون عباسيا أكثر من ثلثهم من مخضرمي الدولتين ، وتأمل هذا الاحصاء كفيل بتشخيص حجم متميز للشعر القديم في جهد ابن قتيبة التطبيقي .

وهكذا يصح لنا القول مرة أخرى ان ماحققه

المحدث في الساحة الادبية من رسوخ وأصالة هو المسؤول عن انفتاح الجهد النقدي لمدارسته حتى لم يعد بوسع ناقدين كالجاحظ وابن قتيبة أن يتجاهلاه رغم ثقافتهما المستمدة من معين آراء اللغويين المنحازين للقديم .

وقد وجد الامر امتداده الطبيعي بعد ذلك في المدونات التي كتبها علماء النصف الثاني من القرن الثالث الهجري حتى بدا أن ماقرره المبرد من قوله : « ليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطي كل ما يستحق »(٢٢) صدى لهذا المنطلق النظري الذي طالعنا في مقدمة ابن قتيبة لكتابه الشعر والشعراء ، اما ابن المعتز الذي تلمذ للمبرد فقد وقف من مبتكرات المحدثين ــ ولاسيما شعراء مدرسة البديع ــ موقف من يحاول سلب فضيلتهم من خلال رد فنون البديع الى أصولها في

(٢٢) الكامل في اللغة والادب ج ١ ص ٢٩ .

التراث القـديم والتركيز على مغبة افراط المحدثين في استخدامها[٢٣] بيـد أنه تجرد لتراجم الشـعراء ممن « مدح الخلفاء والوزراء والامراء من بني العباس »[٢٤] ففتح لنفسه آفاق التعامل مع المحدث وحده مقتفيا أثر رغم ثقافتهما المستمدة من معين آراء اللغويين المنحازين وحـــدهم .

ويبدو أن طول تعامل ابن المعتز مع المحدث في كتابه طبقات الشعراء المحدثين انتهى الى ترسيخ قناعته به ، ثم آل الامر عنده الى تحديد موقف نظري نكاد نلمح فيه بوادر تعصب للمحدث ، فهـو حين تجره الحماسة لبعض ما يسوقه من اشعار من ترجم لهم من المحدثين لا يلبث أن يصف أشعار المتقدمين وأخبارهم بأنها « شيء قد كثرت رواية الناس له فملوه »[٢٥] ثم

(٢٣) تنظر مقدمة كتاب البديع .

(٢٤) طبقات الشعراء المحدثين ص ١٨

(٢٥) طبقات الشعراء المحدثين ص ٨٦ .

يقول بعد قليل : « لكل جديد لذة ، والذي يستعمل في زماننا انما هو اشعار المحدثين وأخبارهم »[٢٦] .

ان تأمل مواقف نقاد القرن الثالث كفيل بان يكشف عن جملة حقائق اهمها ان ممارسة النقد لم تعد وقفا على اللغويين المتزمتين في تعصبهم للقديم وانما انفتحت مسالكها لجهود نقدية شبه متخصصة ، أما أن يكون نقاد القرن من تلامذة اللغويين فان الشعراء المحدثين استطاعوا أن يحققوا لنتاجهم وجوده المتميز حتى استطاعوا ان ينتزعوا من عالم لغوي كالمبرد اعترافا صريحا بأن نتاجهم « أشكل بالدهر »[٢٧] وهكذا فان انشداد الجهد النقدي في القرن الرابع الى المحدث وحده لا يمثل ظاهرة مقطوعة ، فالنماذج الشامخة التي أرسى بشار وأبو نواس وأبو تمام والمتنبي ملامحها الفنية استطاعت أن تشغل الساحة التي بدأ القديم يسحب

---

(٢٦) المصدر السابق ص ٨٦

(٢٧) الكامل في اللغة والادب ج ٢ ص ١ .

ثقله منها ، ولهذا فان عمود الشعر الذي فرض ظله على مــواقف محــدودة في مدونات القــرن الرابع الهجري[٢٨] لم يقف حائلا بين النقد ودراسة المحدث وأستخلاص ملامح النموذج الفني المقبول من نماذجه ، وذلك هو المدار الرئيس لجهود ابن طباطبا والصولي والآمدي والقاضي الجرجاني الذين مثلوا محور الجهد النقدي في هــذا القرن ، فحيث يقــول ابن طباطبا « وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ولطفوا في تناول أصولها منهم ولبسوها على من بعدهم وتكثروا بابداعها فسلمت لهم عند ادعائها للطيف سحرهم فيها وزخرفتهم لمعانيها »[٢٩] ويومىء بذلك الى أثر الذخيرة الثقافية في تقليص حجم الابداع في نماذج المولدين ، لا يلبث أن يضع يده على أثر الزمان في ذلك فيقول : « والمحنة على شعراء زماننا

---

(٢٨) ينظر ما ورد من مواقف الاحتكام الى القديم واتخاذه نموذجا في اخبار أبي تمام ص٣٨ الوساطة ص ٣٤ ، الاغاني ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢٩) عيار الشعر ص ٨

في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم لانهم سُبقوا الى كل معنى بديع ولفظ فصيح وحيلة لطيفة وخلابة ساحرة فان أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يربي عليها لم يلق القبول وكان كالمطرح المملول »[٣٠] .

أما الصولي الذي حاول ان يقف الى جانب أبي تمام فقد تمثلت مهمته في الرد على خصوم الشاعر الذين اتخذوا من النمط القديم سلاحا للطعن عليه فكان أن رد عليهم بأن طعنهم على الشاعر لم يكن الا لأنهم لم يفهموه فهمهم للقديم الذي ذلله لهم ما كان من جهد السابقين في شرحه ودراسته[٣١] ، وعلى الرغم من وضوح التجني في هذا المذهب فان الصولي بدا أقرب الى استيعاب طبائع الاشياء عندما ربط بين ذوق العصر والادب متابعا ما بدأ به المبرد حين قال في شعر المحدثين : « قلما أخذ أحد منهم معنى من متقدم الا

(٣٠) عيار الشعر ص ٨ – ٩ .

(٣١) ينظر اخبار أبي تمام ص ١٤ .

أجاد ، وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها ومعاني أو مأوا اليها فاتى بها هؤلاء واحسنوا فيها ، وشعرهم مع ذلك أشبه بالزمان ، والناس له اكثر استعمالا في مجالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم »[٣٢] .

وقد تابع القاضي الجرجاني ابن طباطبا على انصافه للمحدثين حين قال ان« يسيرهم أحق بالاستكثار، وصغيرهم أولى بالاكبار لان أحدهم يقف محصورا بين لفظ قد ضيق مجاله ، وصنف أكثره ، وقل عدده ، وحظر معظمه ، ومعان قد أخذ عفوها وسُبق الى جيدها »[٣٣] ومع ذلك فان أشعار المحدثين عنده تبقى أقرب الى ذوق العصر « فانما تألف النفس ماجانسها وتألف الاقرب فالأقرب اليها »[٣٤] ، أما ما قد يؤخذ على أشعار المحدثين من عيوب فانه يخفف من وقعه بالقول بأن أشعار القدماء مما لا يسلم من مثله[٣٥] .

---

(٣٢) المصدر السابق ص ١٧ .

(٣٣) الوساطة ص ٥٢ .

(٣٤) المصدر السابق ص ٢٩ .

(٣٥) المصدر السابق ص ٤ .

لقد فتح نقاد القرن الرابع آفاق جهدهم للمحدث منطلقين من مضمون هذا المبدأ الذي قرره المبرد قبلهم حين قال انه أشكل بالدهر ، وبهذا منحوا أنفسهم فرصة دراسة نتاج العبقريات المحدثة التي غدا السكوت عن نتاجها ضربا من الجهل لا التجاهل رغم ان القديم ظل شاخصا فنيا في مواقف الاحتكام .

ولم يخل العصر بعد ذلك من جهد يدور حول القديم وحده ، فقد ألف الخالديان كتابهما (الاشباه والنظائر) لمتابعة معاني المحدثين في أشعار القدماء لأن القدماء عندهما كانوا هم الذين فتحوا باب المعاني للمحدثين ، ولكنهما يضطران مع ذلك الى مجاراة ذوق العصر بقولهما : « ولسنا بقولنا هذا ـ أيدك الله ـ نطعن على المحدثين ، ولا نبخسهم تجويدهم ، ولطف تدقيقهم ، وطريف معانيهم ، واصابة تشبيههم ، وصحة استعاراتهم ، الا أنا نعلم ان الاوائل من الشعراء رسموا رسوما تبعها من بعدهم وعول عليها من قفا أثرهم ،

وقل شعر من أشعارهم يخلو من معان صحيحة ، والفاظ فصيحة وتشبيهات مصيبة واستعارات عجيبة »[٣٦] .

لقد ظل (عمود الشعر) مفزع النقاد في مواقف الخلاف ، وكان الرجوع اليه ـ بهذا القدر أو ذاك ـ سمة ملازمة للدراسات النقدية كلها لا نستثني من ذلك الدراسات التي اختارت المحدث وحده مدارا لجهدها كالموازنة والوساطة ، والعلة في ذلك ان الشعر العربي نفسه ظل أسير العمود الموروث بشكل لم تكن محاولات التجديد مؤهلة معه لطرح مشروع نموذج شعري لايمت الى القديم باكثر من وشيجة تسوغ الربط والعودة الى المأثور في مواقف الخلاف والاحتكام .

لقد كان النقاد مهيئين لقبول نمط جديـد يمتلك هويـة تميزه عن القديم بدليـل أنهم قبلوا المبتكرات الجزئية التي أبدعها المحدثون ، واعترفوا بأن مضامينها (أشكل بالدهر) ولكن الحافز الوحيد الذي كان كفيلا بأخراجهم من دائرة القديم نهائيا هو النموذج الجديد

---

(٣٦) الاشباه والنظائر ج ١ ص ٢ .

الذي لم يولد ولهذا فأن دعوة الانقطاع النهائي عن القديم والتفرغ للمحدث وحده لم تنبثق الا في البيئة الشرقية وفي أواخر القرن الرابع الهجري حيث بدا أن ما تجدد به القرائح هناك أقرب الى الانسلاخ عن البناء الفني الموروث للقصيدة العربية .

لقد وقعت البيئة الشرقية تحت تأثيرات سياسية شعوبية أفلحت أخيرا في عزلها عن قلب الدولة العربية الاسلامية فراح حكامها يشجعون اعادة احياء اللغة الفارسية في الادب حتى نظم الفردوسي الشاهنامة مدفوعا بهذا الروح المتعصب ضد العربية ، أما ما كانت البيئة تشهده من شعر عربي فقد كان مقطوعات قصيرة النفس يغلب عليها الكلف الشديد بالزخرف اللفظي فضلا عن أن النثر كان يجد سوقا أكثر رواجا لما كان من اعتماد ولاة الشأن على الكتاب في شؤونهم السياسية حتى برز نجم أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد والخوارزمي وبديع الزمان الهمداني .. الخ .

لقد فقد الشعر في البيئة الشرقية سماته العربية عندما لهجت به ألسنة تعلمت العربية تعلما ثم دخلت ميدان الشعر من أضيق أبوابه وجعلت قبلتها فيه ما كانت البيئات العربية تجود به من المحدث دون القديم لما كان بينها وبين القديم من حواجز اللغة وتباين الذوق وتفاوت البواعث وكان لابد للنقد أن يصدر عن أذواق وقعت تحت التأثيرات التي خضعت لها أذواق الشعراء ولهذا انبثقت بواكير الدعوة الى الاضراب عن القديم والاقتناع بالمحدث وحده في هذه البيئة دون سواها ، ويبدو أن أبا الحسين أحمد بن فارس كان أول من تجرأ على الجهر بهذه الدعوة في ميدان التأليف العلمي حين قال : « ومن ذا حضر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال : ما ترك الاول للاخر شيئا وتدع قول الآخر : كم ترك الاول للاخر ؟ وهل الدنيا الا أزمان ولكل زمان منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات أوهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر

الاداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود ؟ ولمه لا ينظر الآخر مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟ »[٣٧] .

أما في ميدان الدراسة النقدية فقد كان الثعالبي صاحب أول صوت يصرح بالدعوة الى الاضراب عن القديم والتفرغ للمحدث وحده ، وذلك في كتابه يتيمة الدهر الذي أفرده لدراسة المحدثين والعصريين ضمن مقدمته موقفا نقديا محدد التفاصيل قرر فيه أن الشعر المحدث والعصري أفضل من الشعر القديم حيث قال : « وكانت أشعار الاسلاميين أرق من أشعار الجاهليين ، وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين ، وكانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين لانتهائها الى أبعد غايات الحسن وبلوغها أقصى نهايات الجودة والظرف »[٣٨] .

---

(٣٧) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٤٠ .
(٣٨) المصدر السابق ج ١ ص ١٦ ـ ١٧ .

ولعل تأمل هذا الحكم كفيل بتشخيص توجه متفرد لم يسبق اليه أحد ، بل ان استقراء الموروث النقدي الذي تمخضت عنه القرون الاربعة التي سبقت عصر الثعالبي يؤكد أن الثعالبي كان صاحب أول صوت يقف على الضد من المجرى العام لتفضيل القديم على المحدث، وقد كان هذا الصوت حريا بأن يحتل زاوية ضيقة ، أو لا يحتل أية زاوية من التراث النقدي العربي لولا أنه مثل صوت العصر كما رأينا فضلا عن أن الثعالبي لم يكتف بأطلاقه معتمدا على الرأي الذوقي الصرف وانما تعمد أن يقيم الادلة لترسيخه ومنحه زخما نقديا واضحا، ففي سبيل ترسيخ التوجه قال : « وقد سبق مؤلفو الكتب الى ترتيب المتقدمين من الشعراء وذكر طبقاتهم ودرجاتهم وتدوين كلماتهم والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم ، فكم من كتاب فاخر عملوه وعقد باهر نظموه لا يشينه الآن الا بنو العين عن اخلاق جدته وبلى بردته ومج السمع لمردداته وملالة القلب من

مكرراته »[٣٩] . فالامر اذن منوط بمحاولة احتواء الجديد بعد أن قيل في القديم ما لم يعد معه ثمة جديد يقال ، أما الموقف النقدي من الشعر العصري فحسب الثعالبي أن يقرره بقوله : « وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة ولذة الجدة وحلاوة قرب العهد وازدياد الجودة على كثرة النقد غير محصورة بكتاب يضم نشرها وينظم شذرها ويشد أزرها ولا مجموعة في مصنف يقيد شواردها ويخلد فوائدها »[٤٠] .

والثعالبي هنا يقرر مسألتين نقديتين أولاهما تشخيص سمات الشعر العصري ، فهو يؤمن الى جمال أسلوبه ولغته في اشارته الى (رواء الحداثة) والى طرافة معانيه في (لذة الجدة) والى تعبيره من روح العصر في (حلاوة قرب العهد) ، أما ثانية المسألتين فأنها تتمثل في هذا المبدأ المستفاد من قوله (ازدياد الجودة على كثرة النقد) حيث بدا أن الثعالبي مقتنع

(٣٥) المصدر السابق ج ١ ص ١٧

(٤٠) المصدر السابق ج ١ ص ١٧ .

بأن الناقد (موجه) للشاعر ، وأن الحصيلة العامة للتراث النقدي كانت ذات أثر في بلورة النمط الشعري وارساء ملامحه التي شهدها القرن الرابع الهجري ، ويخيل الي أن الثعالبي لا ينطلق من زاوية نظرية محددة في هذا المبدأ الذي لا نعرف أحدا سبقه الى تقريره بهذا الوضوح ، ذلك أن استقراء اليتيمة يشير الى أن شعر المقطعات المتكلفة الذي كانت البيئة الشرقية تتمخض عنه لم يكن مدار عناية الثعالبي النقدية قدر عنايته بذكر أصحابه وادراجه في تراجمهم أما جهده النقدي فقد أنصب على النماذج الشامخة التي تمخضت عنها عبقريات شعراء الشام والعراق كالمتنبي وأبي فراس والسري الرفاء والشريف الرضي والصابي فاذا تأملنا هذه الحقيقة صح لنا القول بأنه كان يقصد في جهده النقدي الى اقامة شواخص توجيه فني لشعراء البيئة الشرقية فيقدم الصيغة التطبيقية للمبدأ الذي نادى به .

لقد انطلق الثعالبي في مبدأ تفضيل المحدث من افتراضين أولهما افتراض اقتراب تفاصيل الجهد الفني

من ذوق العصر وثانيهما افتراض عامل النضج الحضاري الذي أعان الفحول من شعراء العصر على تقديم النموذج الشعري الناضج والمستوعب للاثار الحضارية استيعابا عجزت عن مثله نماذج العباسيين المتقدمين كأبي تمام ومسلم وابن المعتز .

ويبدو أن منهج الثعالبي في قصر الجهد النقدي على دراسة الشعر المحدث والمعاصر استهوى من جاء بعده من أصحاب الكتب التي أشرنا الى أنها تابعت منهج اليتيمة في توزيع الشعراء على بيئاتهم رغم هذه المحاولات المترددة التي تضمنتها بعض المؤلفات النقدية المتأخرة والتي ظلت ترى في القديم مالا تراه في المحدث من أصالة وروعة أداء (٤١) .

---

(٤١) أنظر مثلا العمدة ج ١ ص ١١٣ .

البيئة الاجتماعية والفكرية والأدب

يبدو أن طبيعة الحياة الاجتماعية العربية قبل الاسلام تبقى مسؤولة عن هذا التناظر العام في موضوعات النتاج الشعري الذي شهده العصر ، فالحياة البدوية ظلت طابعا أصيلا لكل وجوه النشاط الاجتماعي لا نستثني من ذلك النشاط الذي كانت تمارسه الحواضر المتناثرة في الجزيرة العربية ، ذلك أنها ظلت تستقبل آثار العرف الاجتماعي البدوي وتخضع لتفاصيله بشكل تلقائي لم يسمح لها بأن تبلور لنفسها عرفا أو نظاما متميزا تنفرد به أو تنقل تفاصيله الى الحياة خارج حدودها الضيقة .

وقد يصح القول أن ثمة فئات اجتماعية تميزت بأطر حياتية خاصة كأصحاب الديانات من غير الوثنيين وكالصعاليك ، ولكن ما خضع له الشعر الذي تدفق به شعراء هذه الفئات من وجوه التميز كان أخفى من أن تكتشفه العين غير المتخصصة لانسياقه بوجه عام وراء النمط الشعري السائد سواء في موضوعاته أم في طبيعة أدائه الفني ، ولهذا فأن ما تنقله المصادر من ملاحظات نقدية جاهلية واسلامية مبكرة يبقى بعيدا عن تناول أثر التمايز في النموذج الشعري الجاهلي ، ولعل من أقدم ما وصل الينا من اشارات الى أثر البيئة الاجتماعية في الشعر هذه الملاحظات الموحية التي أطلقها الاصمعي في مجموع على أسئلة تلميذه أبي حاتم السجستاني والتي يضمها كتاب (فحولة الشعراء) ، فثمة ما يشير الى أن الاصمعي تنبه الى أن شعر الفرسان والصعاليك يتسم بما ينبغي لناقد مثله معه أن لا يخلطه بسائر الشعر ، ولهذا فأنه حين يضع نصب عينيه أن يقسم عامة الشعراء

(فحولا) و (غير فحول) يبقى حذرا بشأن الفرسان والصعاليك فلا يوازن فارسا أو صعلوكا الا بفارس أو صعلوك وهكذا فأنه يكتفي في اجابة تلميذه أبي حاتم حين يسأله عن زيد الخيل بقوله : (من الفرسان)[١] وحين يسأله عن عميرة بن طارق اليربوعي بقوله : (من رؤوس الفرسان وهو الذي أسر قابوس بن المنذر)[٢] وعن خفاف بن ندبة وعنترة والزبرقان بن بدر بقوله : (هؤلاء أشعر الفرسان ومثلهم عباس بن مرداس السلمي) وعلى هذا النص يعلق أبو حاتم بقوله (لم يقل انهم مخول)[٣] فيقرر أن ثمة حدا في وعي الاصمعي النقدي بين الفحول والفرسان ، ويسري القياس نفسه على قول الاصمعي في دريد بن الصمة وخفاق بن ندية بأنهما (أشعر الفرسان)[٤] .

---

(١) فحولة الشعراء ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤ .

(٤) المصدر السابق ١٨ .

ويتميز الصعاليك عند الاصمعي من الفرسان والفحول فحين يسأله أبو حاتم عن السليك بن السلكة يقول له : « ليس من الفحول ولا من الفرسان ولكنه من الذين كانوا يغزون فيعدون على أرجلهم فيختلسون. قال ومثله ابن براقة الهمداني ومثله حاجز الثمالي من السرويين وتأبط شرا واسمه ثابت بن جابر والشنفري الازدي السروي ، وليس المنتشر منهم ولكن الاعلم الهذلي منهم . قال وبالحجاز منهم والسراة أكثر من ثلاثين ، يعني الذين يعدون على أرجلهم ويختلسون»(٥) وهو يميز في موضع اخر بين الصعاليك والفرسان حين يقول في هذيل : « فيهم أربعون شاعرا مفلقا وكلهم يعدو على رجله ليس فيهم فارس »(٦) وواضح من هذا النص أن الاصمعي كان حذرا جدا فلم يستخدم كلمة (فحل) في وصف الشعراء الاربعين لان الكلمة عنده

---

(٥) المصدر السابق ص ١٥ .

(٦) المصدر السابق ص ١٩ .

غدت مصطلحا لا يسوغ استخدامه الا في وصف شعراء القبائل من غير الفرسان والصعاليك ولهذا استخدم في موضعها كلمة (مفلق) ان مجمل النصوص التي نقلناها من الفحولة اشارة حاسمة الى أن الاصمعي ظـل يتحرك بوعي نقدي دقيق بين (الفحول) و (الفرسان) (الصعاليك) وهو وعي يغرينا بالقول بأنه كان يلمح أثر البيئة الاجتماعية في طبيعة الشعر أو تحديد موضوعاته في الاقل ، فالشعراء القبليون كانوا مهيئين للقــول في الموضوعات المعروفة كلها ، وكانوا مهيئين أيضا لتقديم النموذج المتكامل الذي يحتل الطلل ووصف الظعـن والناقة وقصص وحش الصحراء افتتاحه ، أما الفرسان فقد ظل جل شعرهم مقيدا الى تجاربهم المتميزة التي يشير استقراء النماذج الشعرية المنبثقة عنها الى ميل عـام لطـرح الافتتاح الفني والهجوم على الغـرض دون تمهيد(٧) ، وأما الصعاليك فقد ظل شعرهم محددا بهذا

---

(٧) تنظر اشارة ابن رشيق الى ذلك في العمدة ج ١ ص ٢٢١ .

النمط الموضوعي الصرف الذي بدا واقعا تحت تأثير حياتهم السريعة فجاءت نماذجه مقطعات قصيرة بوجه عام[٨] ولسنا نزعم بعد ذلك كله أن الاصمعي أوضح بواعثه فالنصوص التي سقناها من الفحولة لا تفصح عن تفاصيل بواعث ولكنها تومىء اليها وتقرر نتائج وان لم تحدد التفاصيل .

ويبدو أن ابن سلام اقتفى أثر الاصمعي فقدم نتائج تصور نقدي لاثر الظرف االاجتماعي في الشعر عندما أفرد للفرسان كتابا استغنى به عن ذكر الشعراء الفرسان ضمن الطبقات العشر التي صنف فيها فحول الجاهليين [٩] ويبدو أنه قال شيئا في الصعاليك بدليل أنه لم يذكر أيا منهم في طبقات الفحول وان كان مثل هذا الظن بحاجة الى الدليل التأريخي الموثق لمضمونه الذي نذهب اليه .

---

(٨) تنظر دراسة الدكتور يوسف خليف : **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** .

(٩) تنظر دراسة د . علي جواد الطاهر حول هذه المسألة في بحثه الموسوم ب ((محمد بن سلام)) .

وقد بدا ابن سلام أكثر وضوحا في تحديده لاثر الظرف الاجتماعي المتميز في الشعر عندما تناول مسألة الحرب والشعر في حديثه عن شعراء الطائف فقال : « وبالطائف شعراء وليس بالكثير وانما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الاحياء نحو حرب الاوس والخزرج أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ، ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف »[١٠] . وذلك نص فريد قد يعيننا على تكوين تصور ما لتفاصيل موقف ابن سلام – وربما موقف الاصمعي – من الفرسان الذين كانت الحرب مدار جهدهم الفني ولكننا لا نريد أن نندفع وراء اغراء النص ذلك أننا نشك بأن ابن سلام كان معنيا بغير الاثر (الكمّي) للحرب في الشعر عند حديثه عن شعر الطائف بينما نرى أن الاثر (النوعي) كان هو المدار في افراده للفرسان عن

---

(١٠) طبقات الشعراء ص ٩٥ – ٩٦

الفحول ، ولهذا فأننا لا نعجب كثيرا لما قرره الجاحظ بشأن بني حنيفة عندما تعجب من أنهم رغم كثرة وقائعهم كانوا أقل القبائل شعرا[11] .

ويبدو أن تغير طبيعة الحياة العربية بعد الاسلام كان ذا أثر كبير في تحديد العوامل الاجتماعية والفكرية المؤثرة في الشعر ، ولهذا فأن النقاد كانوا يتحولون الى زوايا أخرى عند متابعتهم لهذه العوامل في الشعر الذي شهدته العصور الاسلامية ، ولعل من أبرز المسائل التي استقطبت الجهد النقدي مسألة العلاقة بين الاسلام والشعر التي أثارت الكثير من الجدل في الدراسات المعاصرة ، أما النصوص الاسلامية فأنها لم تحدد موقفا من الشعر وان تكن حددت موقفا من الشعراء بدا واضحا أنه لا يختلف عن الموقف الذي حددته النصوص نفسها من الناس جميعا ، فالشاعر الذي يقف في صف العقيدة غير الشاعر الذي يقف

---

(11) سبقت الاشارة الى النص المثبت في الحيوان ج ٤ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ .

بوجهها ، والشواهد على ذلك معروفة متداولة ، ولكن الذي يخيل الي أن الشواهد نفسها ظلت تسجل موقفا أقرب الى السلبية من الشعراء بوجه عام وذلك ما يمكن أن نقرره دون حذر اذا تأملنا قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تـر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »(١٢) فليس يخلـو تقديم الآية للموقف السلبي من الشعراء على الموقف الايجابي من دلالة ، فضلاعن أن الموقف الايجابي من الذين (آمنو وعملوا الصالحات) لم يرد الا من باب الاستثناء ولا يمثل المستثنى معادلا مكافئا للمستثنى منه بأية حال ، ولعل الحقيقة التي تكمن وراء هـذا الموقف تتمثل في أن الاسلام نظر الى الشعراء والى الشعر على أنهما يمثلان الذخيرة الثقافية التي غرسها العصر الجاهلي في العقول والنفوس وهو كان على بينة من أن هذه الذخيرة كانت

---

(١٢) سورة الشعراء آية ٢٢٤

تضم خليطا من القيم والمعارف والاعراف وصفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »(١٣) ، ولان التشريع الاسلامي كان البديل المطلوب لهذه القيم والمعارف والاعراف في التطبيق رغم تبنيه لبعض مضامينها ، فقد كان طبيعيا أن يغدو الشعر نفسه موضع اتهام مفترض ، ولهذا تجددت مواقف رجال الاسلام الاوائل من أشعار الجاهليين حيث بدا أن المدار في احكامهم هو القناعة بالمضمون المتفق مع المسيرة الجديدة ، أما التقويم الفني فقد ظل رهنا بهذه القناعة قبل كل شيء .

أما الاحكام النقدية التي شهدتها المراحل التالية فقد بدأت تتخفف من هذا الحذر بسبب من رسوخ العقيدة وانفصال الواقع الحياتي عن مضامين الارث الجاهلي انفصالا لم تعد رواية الشعر الجاهلي وتدارسه معه مسألة تدعو الى التحرج ، فضلا عن تخفف الناس

---

(١٣) العمدة ج ١ ص ٢٧

من التحرج الديني الشديد ، ومن هنا كانت العودة الى الشعر الجاهلي ، بل ان الدراسات اللغوية اعتمدت عليه بشكل رئيس حتى انتهت الى التعصب له كما سبقت الاشارة في مبحث سابق .

لقد كانت أهم بوادر الفصل بين الدين والادب في طريقها الى التبلور على أيدي نقاد القرنين الثاني والثالث الهجريين ، فالاصمعي الذي بلغ من حرصه على الدين أنه كان لا يفسر شعرا يوافق معناه شيئا من القرآن الكريم[١٤] كان يقف موقفا آخر حين يفرغ لحديث الشعر حتى نراه يقول : « الشعر نكد بابه الشر فاذا دخل في الخير ضعف ، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره »[١٥] .

والذي أظنه أن الاصمعي لم يكن معنيا في حكمه هذا بالمسألة الموضوعية ، وانما كان متجها الى النموذج

---

(١٤) ينظر الكامل في اللغة والادب ج ٣ ص ٣٦ .

(١٥) الشعر والشعراء ص ٣٠٥ .

الفني نفسه ، ولهذا فانه شعر حسان الجاهلي عنده ظل افضل من شعر الاسلامي لما هو شاخص في قناعته من اتساع البون بين الابداع الفني المتفتح للحافز الذاتي المتحرر والجهد الفني المطوع للتوجه الفكري المكتسب.

على أن تصورنا هذا لايمنع من القول بأن الاصمعي ظل ينظر الى النموذج الشعري من خلال قناعة جيله من العلماء الذين وضعوا هذا النموذج رائدا في التقويم والحكم النقدي ثم دفعهم الغلو في التعصب له الى أن يتخذها من موضوعاته نفسها رائدا فنيا ، وتلك حقيقة يصرح الاصمعي نفسه بمضمونها في قوله : « طريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحيل والهجاء والمديح والتشبيب والنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، فاذا أدخلته في باب الخير لان »(١٦) ، فذلك تصريح يكاد ينصب على الجانب

---

(١٦) الموشح ص ٦٣ .

الموضوعي وحده كما ترى ، بل انه يقترب من سياق اتخاذ التوجه الموضوعي معيارا للتقويم الفني من خلال موازنة بدا فيها الاصمعي حذرا من (باب الخير) الذي أومأ به الى موضوعات الشعر الاسلامي المنبثقة من القناعة العقائدية التي لم تكن عنده حافزا أصيلا يداني حافز التدفق العفوي المنبثق من أرض القناعة الفنيـة والفكريـة الممتدة الى معطيات التربيـة المبكرة التي يتلقاها الشاعر في المراحل الاولى من حياته .

ويبدو أن الاصمعي لم ينفرد بهذا التوجه فقـد رأينا ان ابن قتيبة اقترب من موقفه كثيرا في تفاصيل محاولته التوفيقية بين القديم والمحدث حين اتجه اولا الى محاولة طرح عنصر الزمان من المعيار النقدي ثم اتجه الى تقرير أقسام القصيدة الجاهلية على المحدثين ، وأوجب عليهم مراعاة تفاصـيلها الدقيقة في نماذجهم الجـديدة فكأنـه عبـر بذلـك عـن ايمانـه

بأن موضوعات النموذج الجاهلي مما ينبغي أن يبقى شاخصا في عملية الابداع الشعري المتأخر ٠

وحيث قاد التعصب للقديم نظرات النقاد المبكرين الى اسقاط الموقف الديني من عملية الموازنة بين النموذجين الجاهلي والاسلامي فان تخفف الاجيال التالية من أسر النمط القديم قادهم الى تحديد موقف جديد دخل العامل الديني والاخلاقي في تفاصيله وان بقي الجانب الابداعي في النموذج الشعري هو محور الاهتمام ، ولعل من الملاحظات المبكرة ما سجله ابن قتيبة نفسه حين عاب على امرىء القيس تصريحه بالدبيب الى حرم الناس والزنا فقال : « والشعراء تتوقى ذلك في الشعر وان فعلته »(٧١) ، على أن ابن طباطبا استطاع ان يقدم موقفا ناضجا مستمدا من ملاحظة الاثر النفسي الذي يحدثه خروج النموذج الادبي عن حدود العقيدة او الخلق في وعي المتلقي فقال:

---

(١٧) الشعر والشعراء ص ١٣٦

« والنفس تسكن الى كل ما وافق هواها ، وتقلق مما يخالفه ، ولها أحوال تتصرف بها فاذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له وحدثت لها أريحية وطرب، فاذا ورد عليها مايخالفها قلقت واستوحشت »[١٨]

ويبدو أن انشداد ابن طباطبا الى المحور النفسي هو الذي منحه هـذا العمق في تحديد الموقف المطلوب، ولهذا فان صوته بقي متفردا لزمن طويل بهذا الوعي للعلاقة بين المبدع والنموذج والمتلقي ، أما المدونات النقدية التي ظهرت بعده فقد ظلت بعيدة عن هذا الطابع العميق من الاستيعاب ، وان ذهبت الى الفصل بين الدين والادب بدوافع مختلفة ، فالصولي الذي يتجرد للدفاع عن أبي تمام يرد على من اتهموا صاحبه بالخروج عن حدود الدين بقوله « وما ظننت أن كفرا ينقص من شعر ولا أن ايمانا يزيد فيه »[١٩] ، ويدعم مذهبه هذا

---

(١٨) عيار الشعر ص ١٥ .

(١٩) أخبار أبي تمام ص ١٧٢

بالرجـوع الى الشـعر الجاهلي الذي مازالت نماذج نماذجه امام المحدثين فيقول : « ماضر هؤلاء الاربعة الذين أجمع العلماء على أنهم أشعر الناس : امرأ القيس والنابغة الذبياني وزهيرا والاعشى كفرهم في شعرهم وانما ضرهم في أنفسهم ، ولا رأينا جريرا والفرزدق يتقدمـان الاخطل عند من يقدمهما عليه بايمانهما وكفره »[٢٠] ، والذي يبدو أن الصـولي اعتمد على مغالطة ذكية حين عمد الى الفحول الاربعة الجاهليين وهـو يعلم أن عدم ادراكهم الاسلام قضية ينبغي أن يحسب حسابها في موازنة مواقفهم بموقف شاعر اسلامي وذلك هو الشأن تقريبا بالقياس الى موازنة الاخطل بجرير والفرزدق فقد كان الرجل نصرانيا وكانا مسلمين ولهذا صح أن يقبل منه ما لايقبل منهما سواد عند من يقدمه عليهما أو يقدمهما عليه ، ولعل الصولي عندما عاد الى نفسه بدا غير مقتنع بهـذا التسامح الغريب فقال :

---

(٢٠) المصدر السابق ص ١٧٤

« على أنه ما ينبغي لجاد ولا مازح أن يلفظ بلسانه ولا يعتقد بقلبه ما يغضب الله عزوجل »[٢١] .

ولا يكاد القاضي الجرجاني يخرج عن مدار الصولي في دفاعه عن المتنبي الذي اتهمه خصومه أيضا بالخروج عن حدود الدين في بعض شعره ، فهو يقول : « لو كانت الديانة عيارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب ان يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره اذا عدت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد عليه الامة بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعرى واحزابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاب من أصحابه ، بكما خرسا ، وبكاء مفحمين ، ولكن الامرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر »[٢٢] .

---

(٢١) المصدر السابق ص ١٧٣ .

(٢٢) الوساطة ص ٦٤ .

وهكذا نرى أن استشهاد الجرجاني بأسماء الشعراء ظل يدور في اطار اجتهاد الصولي القائم على الافادة من الموقع الفني الذي احتله النموذج الجاهلي من نفوس الناس لاتخاذه ذريعة الى رفع نقمة الذين طعنوا على الشعراء الاسلاميين خروجهم عن مستلزمات القيم الدينية في بعض اشعارهم ، وهي ذريعة سبقت الاشارة الى قيمتها النقدية قبل قليل ، بيد أن القاضي الجرجاني انتهى منها الى تقرير جازم وهو أن (الدين بمعزل عن الشعر) وهو قرار نرى أنه لا يرقى الى مناطق الاقناع الا من خلال منطق المغالطة بين الريادة الفنية والطرح الموضوعي للقصيدة الجاهلية .

ولا يكاد التراث النقدي يكشف عن موقف جديد بعد ذلك سوى مايطالعنا في موقف الثعالبي الذي أفرد للمتنبي دراسة نقدية مطولة في كتابه يتيمة الدهر نقل فيها نبذا من أقوال العلماء فيه ، وكان ضمن ما نقله ملخص لرأي الجرجاني الذي سقناه قبل قليل ، ولكنه

لم يكتف بنقله وانما ساقه ضمن صيغة ضمنها رأيه حيث قال : « وعلى أن الديانة ليست عيارا على الشعراء ولاسوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر ، ولكن للاسلام حقه من الاجلال الذي لا يسوغ الاخلال به قولا وفعلا، ونظما ونثرا ، ومن استهان بأمره ولم يضع ذكره وذكر ما يتعلق به في موضع استحقاقه فقد باء بغضب من الله تعالى ، وتعرض لمقته في وقته »[٢٣]، وواضح أن الثعالبي بدأ في توجهه هذا متمسكا برد الفعل الطبيعي الذي احدثه فصل الجرجاني المطلق بين الدين والشعر ، فضلا عن أن ثمة نصوصا اخرى تشير الى أن الثعالبي ظل متشبثا بمبدأ فرض الرقابة الدينية والاخلاقية على الشعر ، فقد هجن أبياتا ومقطوعات ساقها في تراجم أصحابها مشيرا الى خروج أصحابها فيها عن حدود الدين أو الاخلاق[٢٤] وأشار عند ايراده لنصوص أخرى

---

(٢٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ١٨٤ .

(٢٤) تنظر مثلا يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢١٣ ، ٢١٨ وما ورد في الموضوع نفسه في تتمة اليتيمة ج ٢ ص ١١٣ .

الى أنه أسقط منها ما يتعارض والدين أو الاخلاق[٢٥] ، ولكنه بدا ــ رغم ذلك كله ــ واقعا تحت تأثير من نمط آخر عندما تصدى لتراجم شعراء اشتهروا بالمجـون والسخف والخروج على القيم الدينية والاخلاقية في أشعارهم ولكنهم احتلوا مواضع متقدمة بين شعراء العصر لما تميزت به الحياة الاجتماعية في القرن الرابع من انفتاح لهذا النمط من الشعر فما كان من الثعالبي الا أن ترجم لهم واختار من دواوينهم ما اعتاد الناس استحسانه لهم معللا مخالفته لموقفه الذي أعلنـه في ملاحظاته التي ذكرناها بقوله في ترجمة ابن حجـاج : « ولولا أن جد الادب جد ، وهزله هزل كما قال ابراهيم ابن المهدي لصنت كتابي هذا عن كثير من كلام من يمد يد المجون فيعرك بها أذن الحرم ، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل ، ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره ، وتستلمح الكبراء ببنات طبعه ، وتستخف

---

(٢٥)ــ تنظر مثلا تتمة اليتيمة ج ١ ص ٧٠

الادباء أرواح نظمه ، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه ، ومنهم من يغلو في الميل الى ما يضحك ويمتع من نوادره ، ولقد مدح الملـوك والامـراء والوزراء والرؤساء فلم يخل قصيدة فيهم من سفاتج هزلـه ونتائج مخشه ، وهو عندهم مقبول الجملة غالي مهر الكلام موفور الحظ من الاكرام والانعام ، مجاب الى مقترحه من الصلات الجسام ، والاعمال المجدية التي ينقلب منها الى خير حال »[٢٦] ، وواضح تمـاما أن الثعالبي ظل واقعا في موقفه كله تحت تأثير مزدوج من أثر العقيدة من جهة وأثر تيار العصر من جهة أخرى ، ولكنه بقي حذرا فلم يفتح جهده للاثر الثاني الا عنـد تصديه للحديث عن عبقريات فنية لا يسعه التخلي عـن ذكرها أو متابعة تتاجها الذي مثل ذوق العصر وتوجهاته.

وتبقى الآراء في هذه المسألة بعد الثعالبي متأرجحة

---

(٢٦) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣١ ـ ٣٢

بين النقل من هذا التوجه أو ذاك ولكن الساحة النقدية تبقى خلوا من رأى جديد يستحق التأمل والدراسة •

وثمة متابعة أخرى لاثر البيئة الاجتماعية تمثلت بوادرها في دراسات الشعر الاسلامي الذي طرحت نماذجه آثار الوضع السياسي والطبقي الجديد على الحياة العربية ، ثم تهيأ ميدان النقد لمتابعة هذه الآثار في أشعار الفحول وتشخيص آثارها في النموذج الفني ، والحقيقة أن قصور الخلفاء والامراء الامويين كانت المصدر الاول لهذه المادة التي تعاقب عليها النقاد ، فقد ظلت الثقافة الفنية للشعراء الامويين امتدادا للثقافة الفنية التي خلفها لهم أسلافهم الجاهليون ولهذا فأنهم ظلوا ينزلقون الى مواقف رفضها العرف الرسمي الذي بدأ يأخذ طريقه الى الحياة العربية الجديدة ، ولهذا فأن الوليد بن عبدالملك حين يسمع قول جرير •

هذا ابن عمي في دمشق خليفة
لو شئت ساقكم الي قطينا

يقول : أما والله لو قال : «لو شاء ساقكم» لفعلت، ولكنه قال : « لو شئت » فجعلني شرطيا له »[٢٧] .

وتتكرر مثل هذه المواقف[٢٨] فيعي الشعراء الحقيقة حينا وينسونها حينا ولكن المسألة تستقر في مجرى النقد العربي ، ذلك أن الحياة الاجتماعية العربية تستقبل هذا التفاوت الطبقي الحاد الذي يغدو جزءا أصيلا من مجراها اليومي ، ويبقى الشعراء متأرجحين بين ثقافتهم الفنية المتحررة وهذه القيود المطلوبة من الطبقة الحاكمة ومن يدور في فلكها من كبار رجال الدولة والمجتمع . ولهذا فأن المجرى النقدي ظل يحتل موقف الرصد والمتابعة ، ولعل من أوضح الاشارات المبكرة ما ورد في رسالة ابراهيم بن من قوله الذي بدا أقرب الى المجرى التوجيهي منه الى مجرى الطرح

---

(٢٧) الموشح ص ١٢٠

(٢٨) ينظر مثلا الموشح ص ١٨٩ ، ٢٨١ .

النقدي : « وخاطب كلا على قدر ابهته وجلاله وعلوه وارتفاعه وتعظمته واتباهه »[29] .

وعلى مثل هذا جرى قدامة بن جعفر حين قرر أن المدائح يجب أن « تنقسم اقساما بحسب الممدوحين من اصنـــاف النـــاس في الارتفـــاع والاتضـــاع وضروب الصناعات والتبدي والتحضر[30] ويبدو أن امتداد تأثير النمط الفارسي للحياة الاجتماعية في القرن الرابع الهجري كان عاملا مهما في ترسيخ التوجه ، حتى ان المعركة النقدية حول المتنبي دارت بشكل مكثف حول هذه المسألة لاسيما في مواقف النقـــاد الذين ينحدرون من أصل فارسي ، فها هو الصاحب بن عباد ينعى على المتنبي قوله لسيف الدولة :

لا يحـــزن الله الامـــير فأنني
لآخـــذ من حالاتـــه بنصيب

---

(٢٩) الرسالة العذراء ص ٢٢٩ .

(٣٠) نقد الشعر ص ٤٨ .

فيقول : « لا أدري لم لا يحزن سيف الدولة اذا أخذ المتنبي بنصيب من القلق ؟ »[٣١] ويشن هجوما مماثلا على قول الشاعر في رثائه لام سيف الدولة :

بعيشك هل سلوت فأن قلبي
وان جانبت أرضك غير سال

فيقرر أنها تدل « مع فساد الحس على سوء أدب النفس » [٣٢] .

ويذهب الجرجاني هذا المذهب في بعض ملاحظاته النقدية حول شعر المتنبي فينقل الكثير من ملاحظات الصاحب وغيره في كتابه (الوساطة) ويسلم بها [٣٣] ثم يضيف اليها ما يرى أنه من جنسها فحكم على قول المتنبي :

---

(٣١) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ص ٥٠ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٢٥

(٣٣) انظر مثلا الوساطة ص ٤٧٦ .

أغـــار من الزجاجة وهي تجري
على شـــفة الامـــير أبي الحسين

بأنه ضرب من الاساءة « لان هذه الغيرة انما تكون بين المحب ومحبوبه فأما الامراء والملوك فلا يغار على شفافهم » [٣٤] .

ولا يكاد الثعالبي يخرج عن هذا المســلك فهو ينقل ما قيل في شعر المتنبي ويضيف اليه جديدا ، فيقول في ميمية المتنبي التي مطلعها :

واحـــر قلباه ممن قلبه شـــبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم

انها « على براعتها واستقلال أكثر أبياتها بأنفسها تكاد تدخل في باب اساءة الادب بالادب » [٣٥] . ثـــم يذهب الى أبعد من هذا فيأخذ على المتنبي طبيعة الاداء

---

(٣٤) الوساطة ص ٣٠٨ .

(٣٥) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٠٨ .

الفني في قصائده التي يقولها في حضرة الملوك فيرى في قوله لكافور .

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

أن « الابتداء بذكر الداء والموت . والمنايا ما فيه من الطيرة التي تنفر منها السوقة فضلا عن الملوك»[٣٦].

ويبدو أن الثعالبي كان أطول باعا من سابقيه في ملاحظة مسألة مهمة ظلت تكمن وراء هذا التوجه في شعر المتنبي لاسيما ميله في مخاطبة الملوك الى وضع نفسه على قدم المساواة معهم فهو يعزه الى بواعث نفسية وفنية يلخصها في مبحث يعقده لنماذج اختارها من ديوان الشاعر تمثل هذا التوجه عنده ويقول في تقديمها: « مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الاحسان والابداع وهو مذهب له تفرد به

---

(٣٦) المصدر السابق ج ١ ص ١٦٢ .

واستكثر من سلوكه اقتدارا منه وتبحرا في الالفاظ والمعاني ورفعا لنفسه عن درجة الشعراء وتدريجا لها الى مماثلة الملوك » [٣٧] •

ولقد امتد أثر هذا الموقف الى تشخيص الثعالبي لمطاعن على شعراء اخرين غير المتنبي ممن ترجم لهم وأخذ عليهم اساداتهم في مخاطبة أعيان العصر كما هو الامر في نقده لابيات الخوارزمي في الصاحب بن عباد [٣٨]

ولقد استقر الامر بعد هذا في مناهج النقاد حتى تحول في مناهج البلاغيين الى المبدأ المعروف بموافقة الكلام لمقتضى الحال فكان أن خضع لضرب من التزمت المفرغ من المحتوى النقدي في أكثر الاحيان •

---

(٣٧) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٧ •

(٣٨) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٢٢ •

البيئة الشخصية والأدب

تشير النظرة العجلى في طبيعة الحياة الجاهلية الى صعوبة الفوز بشاعر طغت بيئته الشخصية على شعره ، ذلك أن حياة الفرد الجاهلي ظلت مشدودة الى انتمائه القومي المتمثل بالاطار القبيلي حد فناء الذات في الهوية الاجتماعية ، ولهذا ظل الظرف الفردي يبدو امتدادا للظرف القبيلي بصورة قد لا ترد عليها الا استثناءات طفيفة تتلاشى آثارها في بوتقة الانصهار القبيلي كظرف طرفة وعنترة والحطيئة الذين واجهوا معاناة شخصية متميزة كادت آثارها تضيع في هذا الفيض من النماذج المعبرة عن انشداد كل منهم الى

ظرفه القبلي ، على ان جهد العلماء تمخض عن اشارات تستقطب القناعة الى ظروف متميزة كان لها أثرها في الشعر ، ولعل ما سبقت الاشارة اليه من ملاحظات الاصمعي وابن سلام حول الفرسان والصعاليك يمثل ميدانا يصلح للتدخل بين آثار البيئة العامة والبيئة الخاصة ، بيد أننا فضلنا النظر الى تلك الملاحظات على أنها تمثل تشخيصا لاثار البيئة الاجتماعية العامة لما هو مفترض في التصور التأريخي للعصر من أن ظاهرتي الفروسية والصعلكة ناتج اجتماعي محض في بواعثه العامة رغم الثقل الفردي في طبيعة الجهد الفني والموضوعي في قصائد الفرسان والصعاليك .

فاذا تجاوزنا اطار الفرسان والصعاليك طالعتنا اشارات محدودة الى أثر ظروف خاصة في اشعار عدد من الشعراء الجاهليين ، فهذا ابن سلام يفرد لشعراء الرثاء طبقة متميزة بعد طبقات الفحول الجاهليين ، وهي طبقة لاشك في انتمائها الى أصل كتاب الطبقات بدليل

ما ورد في تقديمها من قوله : « أخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب قال : قال محمد بن سلام : وجعلت أصحاب المراثي طبقة بعد العشر طبقات أولهم : المتمم بن نويرة ...»[1] ، والذي يثير التساؤل هنا هو الدافع الذي جعل ابن سلام يفرد طبقة لاصحاب المراثي ، ولعل الاجابة ستبقى معلقة بطبيعة النظر الى منهج ابن سلام في جهده النقدي ، حيث يبدو أن الموضوع الشعري لم يكن مدار اهتمامه في أية طبقة من طبقاته الجاهلية والاسلامية ، فضلا عن أنه لم يقدم في حديثه عن اصحاب المراثي في هذه الطبقة أية لمحة دالة على تمييز ما لموضوع الرثاء ، ولهذا فاننا نستبعد الظن بان ابن سلام أفرد هذه الطبقة انسياقا وراء التمييز الموضوعي الذي تبلور عند ناقد آخر هو الجاحظ الذي قرر فيما بعد أن المراثي أجود الشعر[2] ، وهكذا لايبقى أمامنا الا الظن بان

(١) طبقات الشعر ص ٤٨

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٢٠

دافع ابن سلام الى افراد هؤلاء الشعراء موكول الى تميز الظرف الخاص عند كل منهم لاسيما اذا لاحظنا أن ثلاثة من الشعراء الاربعة الذين ذكرهم في الطبقة ممن أصيبوا في اخوانهم فأفرغوا أشعارهم لرثائهم ، وتلك حقيقة كان ابن سلام متنبها اليها بدليل أنه نص عليها عند ذكر أسماء الشعراء في تقديم الطبقة فقال : « أولهم المتمم بن نويرة بن جمرة ... رثى أخاه مالكا، والخنساء بنت عمرو بن الحارث ... رثت أخويها صخرا ومعاوية .... وكعب بن سعد بن عمرو بن عقبة الغنوي رثى أخاه المغوار » [٣] أما الشاعر الرابع فأنه لا يكاد يخرج عن دائرة رثاء من هو بمنزلة الاخ فهو أعشى باهلة الذي نص ابن سلام على أنه « رثى المنتشر بن وهب الباهلي »[٤] ، ولهذا كله نرى أن بوسعنا الظن أن ابن سلام كان ينظر الى أثر الباعث الشخصي المتميز

---

(٣) طبقات الشعراء ص ٤٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٨ .

بالعنف في ظرف كل من الشعراء الاربعة وما تمخض عنه من تميز في التوجه الشعري عند كل منهم والا فأن العصر الجاهلي أنجب شعراء كان الرثاء واحدا من الميادين الرائعة التي أبدعوا فيها كأوس بن حجر وأبي ذؤيب الهذلي اللذين ورد ذكرهما عندا بن سلام في الطبقة الثانية والثالثة من طبقات الفحول .

ان أثر الظرف الشخصي هو الذي طغى على نتاج هؤلاء الشعراء الاربعة فوسمه بتفرد الغرض وصدق المعاناة وعمقها ، ولعل ابن سلام وضع ذلك كله نصب عينيه عندما قرر أن يفرد لهم طبقة ، فان لم يكن قد أوضح ذلك فاننا لانشك بأنه ادركه باحساسه النقدي العميق فقرر أن يتحدث عن الشعراء الاربعة من زاوية خاصة وذلك وحده سوغ كاف للظن بأن أثر البيئة الشخصية في الشعر لم يكن غائبا عن تأمل نقاد القرن الثاني الهجري

وقد تشير ادلة أخرى الى تنبه مبكر الى أثر الظرف الشخصي في التدفق الشعري حيث بدت أحكام

تقديم بعض الشعراء مرتبطة بتوفر شـرط موضوعي للنتاج الذي يتقدم فيه فقد روى الاصمعي عن أبي طرفة قوله : « كفاك من الشعراء أربعة : زهير اذا رغب ، والنابغـة اذا رهب والاعش اذا طرب وعنتـرة اذا كلب »[٥] وهذا نص يقدم ايماء واضحا الى الربط بين الظرف الشخصي المهيأ لتقديم أفضل ما في قدرة الشاعر الابداعية والنماذج التي يستحق الشاعر التقدم على غيره من خلالهما ولا يخرج عن هذا الاطار ماذهب اليه الاصمعي من قوله : « لم يكن النابغة وأوس وزهير يحسنون صفة الخيل ولكن طفيل غاية في النعت وهو فحل »[٦] ، فقد كان الاصمعي مقدما للنابغة على سائر الشعراء[٧] وكان يعلم أن أوســا وزهيرا من الفحول المقدمين ، ولكنه كان يعلم أيضا أن طفيل الغنوي كان فارسا اسـتهواه وصف الخيل وشكل محور معاناته

---

(٥) العمدة ج ١ ص ٩٥ .

(٦) فحولة الشعراء ص ١٠ .

(٧) تنظر الفحولة ص ٩

الشعرية ولهذا فهو يقدمه في هذا الميدان على فحول يتقدمونه في سائر الميادين وهذا موقف نرى أنه ينتمي الى هذا الذي لمحناه من تنبه العلماء المبكر الى أثر البيئة الشخصية في الادب .

ويتحول الامر عند ابن قتيبة الى جهد تعميمي ، فهو يقرر دواعي الشعر بقوله : « وللشعر دواع تحث البطيء ، وتبعث المتكلف ، منها الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الشراب ، ومنها الطرب ومنها الغضب »[٨] وهو مذهب قد يدخل في اطار النظر الى البواعث الفنية العامة للمعاناة الشعرية لولا أن ابن قتيبة عمد الى حالات باعيانها عند عدد من الشعراء دفعتهم الى التدفق بالشعر أو التعثر في قوله فأشار بذلك الى أثر الظرف الخاص في النتاج الشعري[٩] .

---

(٨) الشعر والشعراء ص ٧٨ .

(٩) تنظر الصفحات ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ من الشعر والشعراء .

وقد يمثل اهتمام العلماء بعد ذلك بتفصيل أخبار من يتحدثون عنه من الشعراء ضربا من الايماء الى ايمانهم بالعلاقة الوثيقة بين ظرف الشاعر وما يختارونه له من شعر ، وذلك مسلك بدت أولى ملامحه الواضحة في الشعر والشعراء لابن قتيبة ثم استقرت في طبقات ابن المعتز وأغاني الاصفهاني وسائر الكتب التي عنيت فيما بعد بالتراجم عناية طغت على النظر النقدي .

وقد لا يخلو من دلالة ما كان من التفات بعض أصحاب كتب التراجم الى جمع أصحاب الظروف الشخصية المتشابهة في موضع واحد من مدوناتهم ، كالذي كان من جمع ابن المعتز تراجم الموسوسين في موضع واحد(١٠) وجمع الثعالبي تراجم الشعراء القضاة في موضع وتراجم الشعراء الكتاب في موضع(١١) على أن ماقد يسترعي النظر في ذلك كله ان بعض العلماء

---

(١٠) طبقات الشعراء المحدثين ص ٣٨١ - ٣٨٧ .

(١١) يتيمة الدهر ج ١ ص ١١٤ - ١١٧ و ج ٤ ص ٤٠٣.

ذهبوا الى أبعد من ذلك حين أدخلوا موضع الشاعر الطبقي في طبيعة النظر الى شعره ، فهذا ابن قتيبة يفصل وجوه اختياره للشعر فيشير الى جودة اللفظ والمعنى والاصابة في التشبيه وخفة الروي أو غرابة المعنى وهي وجوه فنية صرف ، ولكنه لا يلبث أن يقدم وجه اختيار لايدخل في هذا الاطار حيث يقول : « وقد يختار [أي الشعر] أيضا لنبل قائله »[١٢] وهو مذهب لا أعرف احدا سبقه الى تقريره ، واظن المسؤول عنه هو تطور طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية العربية وقد لا تخطىء ان قررنا أن ابن قتيبة نفسه كان يحس ببعد هذا الذي قرره عن النظر العلمي ولهذا فانه حين قدم اختيارات تطبيقية لهذا الشرط فروى للمهدي والرشيد والمأمون لم يعلق عليها بشيء ، ولكنه حين ساق أبياتا ذات نفس شعري جيد لعبدالله ابن طاهر أسرع بالتعليق عليها بقوله : « وهذا شعر شريف بنفسه

---

(١٢) الشعر والشعراء ص ٨٦ .

وبصاحبه »[١٣] فأومأ الى قناعته بأن مـا ساقه من شعر لغيره مما شرف بصاحبه لا بنفسه .

وحيث ذهب ابراهيم بن المدبر المذهب نفسه فانه لم يكتف بالتقرير وانما حاول التعليل من خلال قوله : « الياقوت حسن ، وهو في جيد الحسناء أحسن وكذلك الشعر الجيد موفق ولكنه من أفواه العظماء آنق »[١٤]، وواضح أن ابن المدبر يشترط جودة الشعر اشتراط عظمة صاحبه فيقدم فهما أكثر أصالة من الفهم المستفاد من مذهب ابن قتيبة .

ولقد ذهب الجاحظ مذهبا آخر في التعامل مع ما لاحظه من أثر البيئة الخاصة في الادب فلم يخضع ملاحظاته لمثل هـذا التوجه ، وانما أفاد منها في تقديم فهم نقدي ناضج يطالعنا في موضعين مما وصل الينا من مدوناته فقد جمع نصوصا شعرية ونثرية يلوح عليها

---

(١٣) المصدر السابق ص ٨٧ .

(١٤) الرسالة العذراء (ضمن رسائل البلغاء) ص ٢٤٢ .

أثر البيئة الشخصية لاصحابها ، ويشيع في كل منها ما يومىء الى خلق صاحبه أو طبقته الاجتماعية أو توجهه الفكري أو حرفته وضعها جميعا تحت عنوان (باب أن يقول كل انسان على قدر خلقه وطبعه)[١٥] ولعل العنوان نفسه أصدق دليل على وعي الجاحظ للترابط العميق بين البيئة الشخصية والادب .

ويبدو أن الامر أتخذ البعد نفسه في رسالة الجاحظ التي سماها « في صناعات القواد » وهي رسالة صغيرة عقدها على ايراد نصوص لرجال مختلفي الصناعات في موضوع واحد هو وصف معركة جرت بين العرب والروم ، وقد اختار الجاحظ صاحب خيل وطبيبا وخياطا وزراعا وخبازا ومؤدبا وصاحب حمام وكناسا وشرابيا وطباخا وفراشا زعم أنه سأل كل واحد منهم عن المعركة فوصفها له وضعا تلوح عليه آثار مهنته بشكل عنيف ، ولم يكتف بذلك ، وانما اختار لكل

---

(١٥) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧٥ ـ ١٨٥ .

منهم أبياتا في الغزل الحقها بوصفه للمعركة تعمد أن تكون آثار حرفته واضحة فيها بشكل يلفت النظر[١٦].

والذي يخيل الي أن رسالة « في صناعات القواد » من وضع الجاحظ نفسه ، ذلك أن وصف المعركة جرى على نسق واحد لا يتغير في عامة نصوص أصحاب الصناعات الذين ذكرهم ، فهي جميعا تقع ضمن الصيغة التالية : (لقيناهم في مقدار [تشبيه ساحة المعركة] فما كان بقدر [تشبيه زمن المعركة] حتى تركناهم في [تشبيه مكان انسحاب العدو] وقتلناهم فجعلناهم كأنهم [تشبيه قتلى الاعداء] فلو طرحت (اداة) ما سقطت الا على [موجود من موجودات العدو] .

وقد يقول قائل ان الجاحظ تعمد يسأل كل واحد من أصحاب هذه النصوص ويحدد له منهج الاجابة ويترك له التفاصيل ثم يطلب اليه أن يختار له من غزله ما تلوح عليه آثار حرفته فكانت الحصيلة هذه المادة

(١٦) رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣٧٩ - ٣٩٣ .

التي أودعها في رسالته ، وذلك احتمال وجيه وان كنا نستبعده ، فان صدق فانه لا يغير من حقيقة أن الجاحظ يبقى المحور الرئيس لمادة الرسالة وان المادة لم تكن نتيجة تدفق عفوي من أصحابها ، بيد ان ذلك كله لا يهون من شأن النظر النقدي الذي اعتمد عليه الجاحظ في جمعه للنصوص أو استدرارها من أفواه أصحابها ، فالامر معقود على هذا الوعي الاصيل لاثر البيئة الشخصية في النص الادبي •

ويبدو أن المدونات النقدية التي ظهرت بعد الجاحظ وابن قتيبة لم تخرج عن حدود الملاحظة السريعة لاثر البيئة الخاصة في الادب لاسيما كتب تراجم الادباء التي ظلت معنية بدراسة ظروف انبثاق النص الادبي ومعاناة الاديب الخاصة تجاه عمله الابداعي ، بيد أن الثعالبي الذي استطاع أن يقدم صيغة وعي نقدي عميق لابعاد التفاعل بين البيئة والادب تناول آثار البيئة الشخصية في أدب من ترجم لهم في يتيمته وتتمتها وتابع

الآثار نفسها في مؤلفات أخرى له . لقـد تابع الثعالبي سابقيه على بعض مذاهبهم في هذا الميدان مستفيدا من تأصل بعض الظواهر الاجتماعية والفردية في القرن الرابع الهجري لتعميق المجرى وطرح وجهات نظـر ناضجة في الطرح النقدي ، فقد تابع ابن قتيبة على ما ذهب اليه من اختيار شعر الملوك والامـراء ومن في طبقتهم لشرف أصحابه ، وقدم العذر لذلك ، فقد اشترط في مقدمة يتيمته ألا يورد فيها الا (لب اللب ، وحبـة القلب ، وناظر العين ، ونكتة الكلمة ، وواسطة العقد ، ونقش الفص) ثم استثنى من ذلك ما ضمنه قوله :

« فأن وقع في خلال ما اكتبه البيت والبيتان مما ليس في أبيات القصائد ووسائط القلائد ، فلان الكلام معقود به والمعنى لا يتم دونه ، ولان ما يتقدمه أو يليه مفتقر اليـه ، أو لانه شعر ملك أو أمير أو وزير أو رئيس خطير أو امام من أهل الادب والعلم كبير ، وانما ينفق مثل ذلك بالانتساب الى قائله لا بكثرة طائلة .

وخير الشعر أكرمه رجالا

وشر الشعر ما قال العبيد » [١٧]

ويبدو أن الثعالبي كان أقدر على دعم موقفه من ابن قتيبة لما كان من تأخره في الزمان وافادته من تجارب الرواد في هذا الميدان .

أما رصد أثر البيئة الشخصية المباشر في نتاج الادب.

فقد كان للثعالبي فيه متابعة ناضجة لمنهج الجاحظ الذي أشرنا اليه ، فقد أفرد ثلاثة فصول ضمنها ثلاثة من كتبه أقام مادتها على متابعة نصوص تظهر في لغتها أو أسلوبها أو معناها آثار حرفة أصحابها أو طبقاتهم أو تخصصاتهم العلمية أو فكرهم أو عقائدهم[١٨] .

ويبدو أن الامر استهوى الثعالبي بعد ذلك حتى ألف كتابا برأسه سماه (اللطف واللطائف) [١٨] .

---

(١٧) ينظر التمثيل والمحاضرة ص ١٣٠ ، برد الاكباد في الاعداد ص ١٣٢ ، خاص الخاص ص ٦٥ ، ويلاحظ ان عناوين الفصول مفصحة عن تنبه الثعالبي الى تكلم كل انسان من جنس صنعته

(١٨) مخطوط بمكتبة الاسكوريال ضمن مجموع برقم ٣٦٣ ، وقد قمت بتحقيق الكتاب واودعته لدى مجلة المورد العراقية لنشره .

وجعله ستة عشر بابا عقدها لاقوال طبقات مختلفة من الناس تعمد أن يختارها مثقلة بآثار بيئات أصحابها الشخصية وحاول أن يستقصي فعقد أبوابا لاقوال الملوك والوزراء والادباء والنحويين والاطباء والفقهاء والمؤدبين ... الخ .

ولقد تحرى الثعالبي الامانة العلمية حتى أشار الى اطلاعه على ما قدمه الجاحظ في هذا الميدان [١٩] أما الذي قرره في مقدمة كتابه (اللطف واللطائف) من أنه (لم يسبق الى مثله) فلعله معقود على الجانب الشكلي اذ ان الثعالبي أول من عقد كتابا برأسه لمثل هذا المنهج من من الاختيارات الادبية ، بيد أن الذي بدا الثعالبي أنه سابق اليه حقا هو هذه المنهجية الدقيقة في تصنيف النصوص وتوزيعها على الابواب والاجتهاد في جمع نوادرها ومتابعة آثار البيئة الشخصية في الجوانب المختلفة للنص من لفظ وتركيب وتشبيه واستعارة ومعنى

(١٩) ينظر خاص الخاص ص ٦٥ .

وايحاء نفسي وذلك ما لم يكد الجاحظ يحقق أبعاده بهذا الشكل الناضج الذي قدمه الثعالبي .

لقد شكل الامر عند الثعالبي منهجا نقديا ترتكز أسسه على هذا الوعي الناضج لاثر البيئة في الادب ، وتلك حقيقة بوسعنا أن ندرك عمقها من خلال متابعة بعض ملاحظاته وآرائه المبثوثة في مدوناته ، فهو يقول مثلا في تشبيهات ابن المعتز : « يضرب المثل بها في الحسن وجودة ويقال : اذا رأيت كاف التشبيه في شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والاحسان ، ولما كان غذي النعمة ، وربيب الخلافة ، ومنقطع القرين في البراعة تهيأ له من حسن التشبيه ما لم يتهيأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ولم يستخدموا ما استخدمة من نفائس الاشياء وطرائق الآلات : ولهذا المعنى اعتذر ابن الرومي في قصوره عن شأو ابن المعتز في التشبيهات (٢٠) .

---

(٢٠) ثمار القلوب ص ٢٣٧ .

وعلى الرغم من أن الثعالبي ذهب بعيدا في استقصاء آثار بيئة ابن المعتز الشخصية في أدبه فأنه احتاط لنفسه حين قرر للشاعر أنه (منقطع القرين في البراعة) فجمع القدرة الفنية الى الظرف الشخصي المتميز في عملية تشخيص بواعث الابداع عنده ، ثم ذهب الى أبعد من ذلك حين أجرى هذه الموازنة بين ابن المعتز وأبي فراس الحمداني في ترجمة الاخير حيث قال : « وشعره سائر بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة والمتانة ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله الا في شعر عبدالله بن المعتز ، وأبو فراس يعد أشعر عند أهل الصنعة ونقدة الكلام » (٢١) وهكذا يغدو بوسعنا القول بأن الثعالبي لم يسقط الجانب الفني في عملية تحريه عن آثار البيئة الشخصية في الادب

(٢١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٤٨ .

وقد تمثل متابعة النقاد لاثر مستوى الاديب العلمي في أدبه ضربا من الاشارة العميقة الى أثر البيئة الشخصية في الادب ، بيد أن الذي ينبغي لنا توقعه هو عزوف المدونات النقدية المبكرة عن مثل هذه المتابعة لما كان من اتجاهها الى النصوص القديمة التي لم تكن المعرفة العلمية المتخصصة لتمثل رافدا من روافدها المعروفة ، ولهذا فأن ابن قتيبة ذهب الى وصف شعر العلماء بالتكلف ورداءة الصنعة (٢٢) ولعله حين قرر ذلك كان ينظر الى هذا النتاج الذي تكلفته خواطر علماء القرن الثالث الذين استمنحوا خواطرهم المثقلة بالقيود العلمية لنظم قصائد أو قول نماذج أدبية ظلت تفتقر الى الموهبة الاصيلة في كل الاحيان ، ولعل الآمدي انطلق من هذا التصور الذي ظل حريصا على افتراض قيام الموهبة أساسا للعمل الابداعي الشامخ فقال « التجويد في الشعر ليست علته العلم » (٢٣) بيد أن

(٢٢) الشعر والشعراء ص ٧٠ .
(٢٣) الموازنة ج ١ ص ٢٤ .

الامر لم يبق خاضعا لهذا الفهم وحده لان طبيعة الشعر العربي نفسه بدأت تتفتح لتلقي آثار الحياة العقليـة المتطورة حيث استطاع أبو تمام والمتنبي أن يقدما النص الشامخ الذي يسترفد الموهبة الشعرية ويغترف من النضج العلمي في تفاصيله الداخلية ، وهكـذا دخل النظر الى الاثر العلمي في المعايير النقدية عند المتأخرين فها هو الثعالبي يتعجب من احسان الخباز البلدي في شعره مع أنه شاعر أمي فيقول فيه : « ومن عجيب شأنه أنه كان أميا وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف ولا تخلو مقطوعة له من معنى حسن أو مثل سائر »(٢٤) ويقول في ترجمة أبي الفرج الاصفهاني : « له شعر يجمع اتقان العلماء واحسان ظرفاء الشعراء » (٢٥) فيقدم في نصه الاول اشارة غير مباشرة الى عمق الاثر المتوقع للعلم في الشعر ، ويجمع في النص الثاني بين العلم والموهبة ويعدهما شرطين للاتقان والاحسان ،

(٢٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠٨ .
(٢٥) المصدر السابق ج ٣ ص ١١٤ .

ويخيل الي أن الثعالبي ظل حريصا على أن لا يخلط بين مصطلحي (الانفاق) و (الاحسان) في نصه الاخير ليكون ربطه بين العلة والمعلول دقيقا من وجهة نظر نقدية خالصة .

ان طغيان الروح العلمي لم يكن ليعني تخلي النقاد المتأخرين عن شرط الموهبة في المبدع ولهذا فأن الثعالبي نفسه حين يلمس جفاف عطاء الموهبة في شعر الجوهري لا تغريه قدرته العلمية الا بأن يقول : « وللجوهري شعر العلماء لا شعر مفلقي الشعراء »[٢٦] .

ويدخل في هذا الاطار بعد ذلك ما ورد من أحكام تعميمية للثعالبي كالذي ذهب اليه من استجادة شعر الكتاب[٢٧] واستجفاء شعر المؤدبين[٢٨] وتلك آراء

(٢٦) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٠٧ وانظر ما يقارب ذلك في ص ٤١٧ .
(٢٧) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٩٤ .
(٢٨) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٤٢ .

لانشك أن الثعالبي اســتمد بعض مقوماتها من ذوق العصر وأخضع تفاصيلها لثقافته النقدية وذوقه الفني

ولا يكاد الموروث النقدي بعـد عصر الثعالبي يكشف عن اتجاه مختلف عن هذا الذي تقرر في المجرى النقدي الذي شخصت معالمه في القرنين الرابع والخامس الهجريين •

خاتمة

وحيث ينتهي بنا المطاف الى تشخيص هـذه الملامح المبكرة لمنهج الربط بين البيئة والادب في المدونات النقدية العربية حيث ظهر لنا أن النقاد العرب كانوا قد رصدوا آثار البيئة المكانية والزمانية والظروف العامة والشخصية من خلال مناهجهم المختلفة لدراسة النتاج الادبي فأن الذي ينبغي لنا قوله هو أن الامر يبقى بحاجة الى استقصاء أوسع قد لا تقوم له مثل هـذه الدراسة السريعة ، ولهذا فأننا نؤمن أن النتائج التي

وقفت عندها هذه الدراسة ستبقى مجرد خطـوة على طريق ليست بغنى عن خطوات تكمل الشوط ثم تفتح أشواطا أخرى لاستجلاء الملامح البكر للمناهج النقدية المعاصرة في التراث العربي الذي يبقى مؤهلا لتشخيص ملامح المنهج الفني والتأريخي والنفسي ٠٠ الخ وان يكون ذلك الا من خلال جهد الاستقراء والموازنة لتقرير النتائج في حدود قدرة النصوص على التقرير ، وسيبقى البون بين هذه الخطوة والطموح الشاخص في الافق الذي حاولنا الاتجاه اليه أوسع من طاقة الجهد الفردي ولكن حسبها أن تكون خطوة طامحة ، وأن تكـــون النتائج التي حققتها ثمار محاولة مخلصة لخدمة تراث أمتنا النقدي الاصيل ٠

د ٠ محمود عبدالله الجادر

المصادر والمراجع

- اخبار أبي تمام ، الصولي (ت ٣٣٥ هـ) تحقيق خليل محمود وآخرين ، بيروت (د . ت)

- الاشياء والنظائر ، الخالديان (أبو بكر محمد بن هاشم ت ٣٨٠ هـ وأبو عثمان سعيد بن هاشم ت ٣٩١ هـ ، تحقيق د . سيد محمد يوسف ، مصر ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥ م .

- أصول النقد الادبي ، الاستاذ محمد الشايب ، مصر ١٩٦٤ م .

- الاغاني ، أبو الفرج الاصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) طبعة دار الكتب المصرية .

- برد الاكباد في الاعداد ، الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) ضمن مجموعة خمس رسائل ، القسطنطينية ١٣٠١ هـ

- البيان والتبيين ، الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) تحقيق عبدالسلام هرون ، مصر ١٩٤٨ م .

- تأريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، بيروت ١٩٦٧م .
- تأريخ الادب العربي ،الزيات ،ط ٢٣ ، مصر (د.ت)
- تأريخ النقد الادبي عند العرب ، د . احسان عباس، بيروت ١٩٧١م .
- تتمة اليتيمة ، الثعالبي ، تحقيق عباس اقبال : طهران ١٣٥٣هـ .
- ثمار القلوب ، الثعالبي ، تحقيق د . محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٦٥م .
- الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هرون مصر ١٩٣٨م .
- خاص الخاص ، الثعالبي ، تحقيق الشيخ محمود السمكري ، مصر ١٣٢٦ هـ .
- دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث ، د . بدوي طبانة ، مصر ١٩٦٥م .
- ديون امرى القيس ، تحقيق د . محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٥٢م .
- ديوان عنترة ، تحقيق محمد سعيد مولوي بيروت ١٩٦٤م .

- ديوان كعب بن زهير ، طبعة دار الكتب ، مصر ١٩٥٠م .
- رسائل الجاحظ (في صناعات القواد) تحقيق عبدالسلام هرون مصر ١٩٦٤م .
- رسائل البلغاء (الرسالة العذراء) تحقيق محمد كرد علي مصر ١٩٥٤م .
- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تحقيق احمد محمد شاكر ، مصر ١٩٦٦م .
- الشعراء الصعاليك ، د . محمد يوسف خليفة ، مصر ١٩٥٩م .
- طبقات الشعراء المحدثين، ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) تحقيق عبدالستار احمد فراج ، مصر ١٩٦٨م .
- العمدة ، ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ (تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مصر ١٩٥٥ .
- عيار الشعر ، ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) تحقيق د . طه الحاجري ود . محمد زغلول سلام مصر ١٩٥٦م
- فحولة الشعراء ، الاصمعي (ت ٢١٣هـ) تحقيق ش.نوري ، تقديم د . صلاح الدين المنجد ، بيروت ١٩٧١م .
- الكامل في اللغة والادب ، المبرد (ت ٢٨٥هـ) تحقيق د . محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٥٦م .

- الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ، الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ) تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين بغداد ١٩٦٥م .
- اللطف واللطائف ،الثعالبي ، (مخطوط) الاسكوريال ضمن مجموع برقم ٣٦٣ .
- محمد بن سلام ، دكتور علي جواد الطاهر (بحث) مجلة المجمع العلمي دمشق ، نيسان ١٩٦٦م .
- مصادر التراث العربي ، د . عمر الدقاق ، حلب ١٩٦٨م .
- مصطلحات تقدية ، خير الله علي السعداني- (رسالة ماجستير بالالة الكاتبة) بغداد ١٩٧٥م
- ملاحظات تين حول انكلترا (بالانكليزية) ترجمة ادوارد هيامز ، لندن .
- مناهج الدراسة الادبية ، د . شكري فيصل ، مصر ١٩٥٣م
- الموازنة ، الامدي (ت ٣٧٠هـ) تحقيق د . احمد صقر ، مصر ١٩٦١ - ١٩٦٥م .
- الموشح ، المزرباني (٣٨٤هـ) جمعية نشر الكتب العربية ، مصر ١٣٤٣هـ .

- نزهة الالباء في طبقات الادباء ، الانباري (ت ٥٥٧هـ) تحقيق د . ابراهيم السامرائي بغداد ١٩٥٩م .
- نصوص النظرية النقدية ، د . جميل سعيد و د . داود سلوم . النجف ١٩٧١م .
- النقد المنهجي عند العرب ، د . محمد مندور ، مصر (د . ت) .
- النقد الادبي ، أحمد أمين ، مصر ١٩٦٣ .
- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) تحقيق محمد عيسى منون ، مصر ١٩٣٤م .
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، مصر ١٩٦٦م .
- يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، الثعالبي ، تحقيق محيي الدين عبدالحميد ، مصر ١٣٧٥هـ .

صدر من الموسوعة الصغيرة

١٠١ ـ الصراع الفكري عند الجاحظ . تأليف د . الياس فرح

١٠٢ ـ القنبلة النيوترونية . تأليف محمد عبداللطيف مطلب

١٠٣ ـ لمحات من البطولة العربية في شعر الحرب . تاليف غانم جواد رضا

١٠٤ ـ الكحول وجسم الانسان . تأليف د . اميرة عبدالستارالبيروتي

١٠٥ ـ العربية تواجه العصر . تأليف د . ابراهيم السامرائي

١٠٦ ـ الوقود النووي تأليف د . نعمان النعيمي

١٠٧ ـ افلام الرسوم المتحركة والدمى . تاليف رضا الطيار

١٠٨ ـ مدينة بغداد . تأليف د . خالص الاشعث

١٠٩ ـ مبيدات الحشرات . تاليف د . جليل ابو الحب

١١٠ ـ الجاحظ . تأليف د . وديعة طه النجم

١١١ ـ الجزري رائد الميكانيك التطبيقي العربي . تاليف ماجد عبدالله الشمس

١١٢ ـ حروف الاضافة في الاساليب العربية . تاليف يوسف نمرذياب

١١٣ ـ الغذاء والتطور العلمي للتغذية . تاليف محمد عبدالسميدي وحميد مجيد العبيدي

١١٤ ـ الاشعاع في حياتنا . تاليف عبد الرسول مهدي عبره

١١٥ ـ شعر الحرب في عصر الرسالة . تاليف د . نوري حمودي القيس

١١٦ ـ البحث البلاغي عن العرب . تاليف د . احمد مطلوب

١١٧ ـ الصناعات النفطية في العراق تأليف د . محمد ازهر سعيد السماك

١١٨ ـ اثر الف ليلة وليلة في الآداب الاوربية . تأليف عبدالجبار محمود السامرائي

١١٩ ـ اللاسامية في الفكر الصهيوني تأليف د . عبدالوهاب محمد الجبوري

١٢٠ ـ الثقافتان الادبية والعلمية ونظرة ثانية ترجمة د . صالح جواد كاظم

١٢١ـ الخلاصة في مذاهب الادب الغربي تأليف د . علي جواد الطاهر

١٢٢ ـ المرأة والتأليف ترجمة سهيلة اسعد نيازي

١٢٣ ـ مقالات في تربية الطفل ترجمة خضير عباس اللامي

١٢٤ ـ البحث الصوتي عند العرب تأليف د . خليل ابراهيم العطية

١٢٥ ـ اشارات اولية في الشعر التركي تأليف عبداللطيف بندراوغلو

١٢٦ ـ عالم الهرمونات تأليف يحيى السلطاني

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(٦٨٦) لسـنة ١٩٨٣

دار الحريـة للطباعـة ـ بغداد
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

Little Encyclopedia
A Fortnightly Cultural
Series dealing with various
branches of Science, Art,
and Literature

Issued by Dar — Al-Jahidh
Al-Khulafä Street — Baghdad

Editor-in-Chief
Musa Kraidi

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان

المؤلف في سطور

د. محمود عبدالله الجادر

- ولد في الموصل سنة ١٩٣٧م .
- حصل على البكالوريوس في كلية التربية ـ جامعة بغداد سنة ١٩٦٠م .
- حصل على الماجستير في كلية الآداب جامعة بغداد سنة ١٩٧٤م .
- حصل على الدكتوراه في كلية الآداب جامعة بغداد سنة ١٩٧٨م .
- صدر له من الكتب :

○ الثعالبي ناقداً واديبا ١٩٧٦م .

○ شعر آوس بن حجر ورواته الجاهلين ١٩٧٩م .

○ كتاب التراث (بالمشاركة) ١٩٧٩م .

○ ومن البحوث في المجلات العربية والعراقية :

○ القيم الحضارية في تراث العرب الشعري .

○ مدلولات رمز المرأة في مقدمة القصيدة العربية .

○ قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية .

○ ملامح السرو القصصي في القصيدة العربية .

○ مصادر الثعالبي في كتابة يتيمة الدهر .

- يعمل حاليا بتدريس الأدب الجاهلي في قسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ جامعة بغداد .

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدرها دار الجاحظ للنشر
بغداد - شارع الخلفاء
رئيس التحرير : موسى كريدي

الكتاب القادم

تخطيط العلم والتكنولوجيا

تأليف

كمال الصفار

السعر ١٠٠ فلس
دار الحرية للطباعة - بغداد